

رشيد ناصيف

أزواج ما قيل
في
الحور

دار الحبيبة

بيروت

فهرس المحتويات

صفحة

المقدمة	٥
الباب الأول: من الدين	٧
- الفصل الأول: من الديانة الإسلامية	٩
- الفصل الثاني: من الديانة المسيحية	١٣
- الفصل الثالث: من الديانات الهندية	١٤
الباب الثاني: من الأمثال	١٧
- الفصل الأول: من الأمثال العربية	١٩
- الفصل الثاني: من الأمثال العالمية	٢١
- الفصل الثالث: من الأمثال اللبنانية	٢٣
الباب الثالث: من الحكمة	٢٥
- الفصل الأول: من أقوال الحكماء العرب	٢٧
- الفصل الثاني: من أقوال الحكماء الأجانب	٣١
- الفصل الثالث: من أقوال الشعراء العرب	٣٨
الباب الرابع: عند الاحتضار	٤٩

الباب الخامس: عند القبر	٥٩
- الفصل الأول: القول عند المقابر.....	٦١
- الفصل الثاني: الوقوف على القبور وتأبين الموتى.....	٦٣
- الفصل الثالث: ما كتب على القبور.....	٧١
الباب السادس: في الرثاء	٧٧
- الفصل الأول: في رثاء الذات.....	٧٩
- الفصل الثاني: في رثاء الولد.....	٨٣
- الفصل الثالث: في رثاء الأخ.....	٩٢
- الفصل الرابع: في رثاء الزوجة.....	١٠٠
- الفصل الخامس: في رثاء الزوج.....	١١٣
الباب السابع: في التعازي.....	١١٥
الباب الثامن: متفرقات.....	١٢٩

المقدمة

خرجنا في هذه السلسلة من «أروع ما قيل» عن فنون الأدب وأغراضه مرتين. أولاهما حين خصّصنا كتابًا لأروع ما قيل في الزواج، وثانيتها في هذا الكتاب الذي خصّصناه لأروع ما قيل في الموت.

ورب سائل يسأل: لماذا خصّصنا هذين الموضوعين دون غيرهما بكتابين مستقلّين؟ والجواب أنّهما أهمّ حدثين يتعرّض لهما الإنسان في حياته، وكلاهما بداية ونهاية، ولكل منهما علائق وشيعة بالدين، والمجتمع، والتجربة الإنسانية على مدى العصور وفي مختلف المجتمعات.

والناظر في الكتابين يرى أنّنا نوّعنا فصولهما ما أمكننا ذلك، فمن الدين نُتف، ومن الأمثال أخرى، ومن الحكمة طاقة ثالثة، إلى ما استطعنا الوصول إليه من طرائف، ونوادر، وكلّ ما فيه حكمة، أو موعظة، أو نادرة، أو خبر طريف، أو ما يدعو إلى إعمال العقل فيه، أو نحو ذلك.

وليس لنا الفضل في كل ذلك سوى فضل الاختيار، والتنسيق، وقد اقتضى الأول أن أقرأ الكثير من الكتب لكي أعود من قراءتي لها ببعض ما وجدته رائعًا. وقد أكون غير موفق في بعض ما اخترت، أو قد يكون عند بعضهم ليس «أروع ما قيل»، لكنني اجتهدت أن يكون «من أروع ما قيل» إن لم يكن «أروع»، فإن أصبْتُ فالخير أردت، وإلا فحسبي أنني حاولت. والله الموفق والمعين.

المؤلف

الباب الأول

من الدين

الفصل الأول: من الديانة الإسلامية

أولاً: من القرآن الكريم

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

(الأنبياء : ٣٥)

* * *

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

(النحل : ٦١)

* * *

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾.

(النساء : ٧٨)

* * *

﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بَأْيَ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

(لقمان : ٣٤)

* * *

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾.

(الجمعة : ٨)

* * *

﴿وما الحياة الدنيا، إلا لعب ولهو، وللدار الآخرة خير للذين يتقون،
أفلا تَعْقِلُونَ﴾.

(الأنعام : ٣٢)

* * *

﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدّون عن سبيل الله،
ويبغونها عوجًا، أولئك في ضلال بعيد﴾.

(إبراهيم : ٣)

* * *

﴿يا قوم، إنما هذه الحياة الدنيا متاع، وإن الآخرة هي دار القرار﴾.

(غافر : ٣٩)

* * *

ثانيًا: من أقوال النبي محمد (ﷺ)

«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، ولا يَدْعُ به مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمرُهُ إِلَّا خَيْرًا».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«إِذَا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرِ الصُّبَّاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ أَصَابِهِ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ فاعِلًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَخِيْنِي ما كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوفاةُ خَيْرًا لِي».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَغْتَبُ».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى ما مَاتَ عَلَيْهِ».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنْمَى عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا فَظِيعًا إِلَّا وَالْمَوْتُ أَقْطَعُ مِنْهُ».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

الفصل الثاني: من الديانة المسيحية

الحقُّ الحقُّ أقول لكم: إنَّ لم تقع الحبة من الحنطة في الأرض وتمتَّ تبقى وحدها، وإذا ماتت أخرجت حبةً كثيرًا.

(يوحنا ١٢ : ٢٤)

* * *

طوبى للأمم الذين يموتون في رضا الرب! يقول الروح:
فليستريحوا منذ اليوم من المتاعب، لأنَّ أعمالهم تصحبهم.

(رؤيا يوحنا ١٤ : ١٣)

* * *

دع الموتى يدفنون موتاهم.

(متى ٨ : ٢٢)

* * *

إنَّ أجرة الخطيئة هي الموت.

(رسالة بولس إلى رومة ٦ : ٢٣)

* * *

لا تشمت بموت أحد، إنا بأجمعنا نموت.

(ابن سيراخ ٨ : ٨)

* * *

الفصل الثالث: من الديانات الهندية

لا عاصم للإنسان من الموت حتى ولو اتخذ السماء أو البحر أو
كهوف الجبال أو أية بقعة من الدنيا ملجأ له .

(من أقوال الدامايدا)

* * *

كما يسوق راعي البقر قطيعه إلى اصطبل ، فكذلك تسوق الشيخوخة
والموت الأحياء .

(من أقوال الدامايدا)

* * *

يحيق الموت بالواحد ويجرفه كما يجرف الطوفان النائم .

(من أقوال الدامايدا)

* * *

إذا حانت منية الإنسان فلن يغني عنه أولاده ولا أبوه ولا الأقربون .

(من أقوال الدامايدا)

* * *

كما يبكي الأطفال عبثًا للحصول على القمر ، كذلك يبكي الأحياء

على الأموات.

(من كتاب الجتاكس)

* * *

على الناس أن يستقبلوا الموت بسرور استقبالهم عيد منتصف الشهر.

(من كتاب الجتاكس)

* * *

عندما يُشرف العصفور على الموت تصبح زقزقته حزينة، وعندما
يشرف الإنسان على الموت ترتدي أقواله طابع الفضيلة.

(من الديانة الكونفوشيوسية)

* * *

إنني لأعلم علم اليقين أنّ الموت لن يخطئني.

(من أقوال الجتاكس)

* * *

إذا جاء الموت بعد الظهر فإنّ البرء قد يأتي في المساء، وإذا جاء
الموت في المساء فقد يأتي البرء في الصباح.

(من الزرادشتية)

* * *

كيف نفهم الموتى ونحن لا نعلم عن الحياة إلا يسيراً.

(من الكونفوشيوسية)

* * *

الباب الثاني

من الأمثال

الفصل الأول: من الأمثال العربيّة

- الموت في الجماعة طيّب.

* * *

- ليس حيّ على الزمان بياق.

* * *

- موت الحرّة خير من العرّة.

* * *

- الموت حوض مورود.

* * *

- الموت ريحانة المؤمن.

(النبي محمّد ﷺ)، وأصبح هذا القول مثلاً عربيّاً)

* * *

- الموت السجّيح^(١) خير من الحياة الذميمة.

* * *

(١) السجّيح: السهل، الهين واللّين.

- الموت الفادح خير من العي (أو: العيش) الفاضح.

* * *

- موت في قوت وعزّ أصلح من حياة في ذلّ وعجز.

* * *

- احرص على الموت توهب لك الحياة.

* * *

- ذكر الموت جلاء القلوب.

* * *

- كفى بالموت نأياً واغتراباً.

* * *

الفصل الثاني: من الأمثال العالمية

الموت يهزأ بالطبيب.

مثل إنكليزي

* * *

تستمد الحياة قيمتها من الموت.

مثل هندي

* * *

الموت هو المساوي الكبير بين الناس.

مثل إنكليزي

* * *

الموت والقبر لا يميزان بين الأشخاص.

مثل إنكليزي

* * *

- الموت أكبر من أي جبل، وأصغر من أي شعرة في آن معاً.

مثل ياباني

* * *

- البحث عن بلاد ليس فيها أضرحة، يؤدي إلى بلاد أكلة لحوم البشر.

مثل ماغاشي

* * *

- الموت جمل يركع أمام كل الأبواب.

مثل تركي

* * *

- الموت هو صديق المشرف على الموت.

مثل دانمركي

* * *

- الموت هو أمام عيني الشيخ، أما الشاب فالموت خلفه.

مثل أستوني

* * *

- الموت لا ينظر مطلقاً إلى الإنسان

مثل ليتواني

* * *

- الميت يقول إنه ذاهب لِعَدِّ النجوم، وإنه سيعود بعد أن يعدّها جميعاً.

مثل تاهيتي

* * *

الفصل الثالث: من الأمثال اللبنانية

- أكثر من الموت شو في؟
- ألف عيشة بالكدر، ولا نومة تحت الحجر.
- ألف كلمة جبان، ولا كلمة الله يرحمو.
- الله عطى، والله أخذ.
- ألي يتاجر بالرواح، لا يكون نواح.
- ألي بتجي ورقفو، بروح غصب عن رقبتو.
- ألي بموت، وألي بفوت، شيلن من راسك.
- أمر (أو: شر) من الموت انتظارو.
- بين الستين والسبعين هلاك بني آدمين.
- تعددت الأسباب والموت واحد.
- الجنازة حامية، والميت كلب.
- حب الموت (أو: الشر) غيرك بيكرهو.
- خلصوا زيتاتو.
- رب الموت خاف من الموت.
- ربنا ما ساوانا إلا بالموت.

- شو بيتقع البكي بعد ما حملوه للمقبرة؟
- شو الموت نَعَس؟
- قيمة الميِّت دَفَنُو.
- كاس دايرَغ الجميع.
- ما حدا بموت إلّا تَ تجي ساعتو.
- ما في علّة تَ إلها دوا، إلّا علّة الموت ما إلها دوا.
- ما كلّ من عاش يُحمد، ولا كلّ من مات يُفقد.
- ما مِثّ ما شِفِت مين مات؟
- مات محمد وما تعطلت إمتو.
- الموت أقرب من الحاجب للعين.
- الموت بساوي بين الجميع.
- الموت غَ الكترة جَلُو.
- الموت فجّي، والسعادة منين تجي؟
- موت الفقير، وتعريضة الكبير ما حدا بيعرف فين.
- الموت ما بيرحم حدا.
- الموت ما في شماتة.

* * *

الباب الثالث

من الحكمة

الفصل الأول: من أقوال الحكماء العرب

- الموت باب الآخرة.

الحسين بن علي

* * *

- لا ينجو من الموت من خافه، ولا يُعطى البقاء من أحبه.

الإمام علي

* * *

- موت الصالح راحة لنفسه، وموت الطالح راحة للناس.

الإمام علي

* * *

- استهينوا بالموت، فإنّ مرارته في خوفه.

الإمام علي

* * *

- عش ما شئت فأنت ميت، وأحب من شئت فأنت مفارقة، واعمل ما شئت فأنت مجزي به.

الإمام الغزالي

* * *

- احرص على الموت توهب لك الحياة.

أبو بكر الصديق

* * *

- الموت أهون ما بعده وأشد ما قبله.

أبو بكر الصديق

* * *

نسيان الموت صدأ القلب.

الإمام علي

* * *

- إن الموت فضح الدنيا.

الحسن بن علي

* * *

- نعم نصيحة القلب ذكر الموت، يطرد فضول الأمل، ويكفّ غرب
المنى، ويهون المصائب، ويحول بين القلب والطغيان.

معبد الجهنني

* * *

- ما دَخَلَ ذِكْرُ الموت بيتًا إِلَّا رضي أهله بما قسم الله لهم، وجدّوا
في أمر آخرتهم.

* * *

- أبلغ العظمت النظر إلى محلّ الأموات، ومصارع البنين والبنات.

* * *

- قال الحسن بن علي وقد قعد عند رأس ميت :
إنَّ امرأَ هذا آخره لأهل أن يزهد فيما قبله ، وإنَّ امرأَ هذا أوَّلُه لأهل أن
يحذر ما بعده .

* * *

- يا ابن آدم ، إنَّ جوارحك سلاح الله عليك بأيتها شاء قتلك .

* * *

- من كان حياته بنفسه يكن مماته بذهاب روحه ، فتصعب عليه ،
ومن كان حياته بربه ، فإنه يتقل من حياة الطبع إلى حياة الأصل ، وهي
الحياة على الحقيقة .

* * *

- أرى داعي الموت لا يقلع ، وأرى من مضى لا يرجع ، ومن بقي
فإليه ينزع .

عبدالله بن شداد

* * *

- يا ابن آدم ، إنما أنت عدد ، فإذا مضى يومك فقد مضى بعضك .

الحسن بن علي

* * *

- من أكثر من ذكر الموت اكتفى باليسير ، ومن علم أنَّ الكلام عمل
قلَّ كلامه إلا فيما ينفع .

عمر بن عبد العزيز

* * *

- قال رجل للحسن بن علي: مات فلان فجأة، فقال: لو لم يمت
فجأة لمرض فجأة ثم مات.

العقد الفريد

* * *

- كان أبو الدرداء إذا رأى جنازة قال: اغدي فإننا رائحون، أو روعي
فإننا غادون.

العقد الفريد

* * *

الفصل الثاني: من أقوال الحكماء الأجانب

- اثنان لا يغيّران رأيهما أبدًا: الجاهل والموت.

لوك

* * *

- إنّ الرجل الذي ليس في روحه استعداد للموت بشرف في سبيل أمر جليل لا يحقّ له أن يعيش في الحياة.

مارتن

* * *

- الموت خير من المذلة.

سفوكليس

* * *

- الخوف من الموت شرّ من الموت.

بيليوس

* * *

- عندما تمزح العجوز تغازل الموت.

بوليو سيروس

* * *

- يجب أن يبكي الإنسان عند ولادته، وليس عند وفاته.

مونتسكيو

* * *

- ينبغي للحكيم أن يغادر هذه الدنيا بالقدر نفسه من الحشمة الذي يغادر به الوليمة.

ديموفيلوس (القرن السادس ق.م.)

* * *

- الموت المتوقع هو أبشع أنواع الميئات.

باكليدس الخيوسي (القرن الخامس ق.م.)

* * *

- كل شيء من التراب وإلى التراب يعود.

ميناندر (القرن الرابع ق.م.)

* * *

- المصيبة أن تبقى سنابل القمح بلا حصاد، وكذلك المصيبة ألا يموت البشر.

إيكتيتوس (مطلع القرن الثاني)

* * *

- الموت خير كبير ما دام ليس شراً.

بوبليليوس سيروس (القرن الأول ق.م.)

* * *

- إنه لمن السعادة أن يموت المرء قبل أن يتوسل العون من الموت .

بويليليوس سيروس * * *

- المرء يموت مرتين عندما يموت بإرادة آخر .

بويليليوس سيروس * * *

- الموت يُمسك بمن يفرّ .

هوراس (حوالي السنة ٢٣ ق.م.)

* * *

- الموت يساوي بين كل الحالات .

كلوديانوس (حوالي السنة ٣٩٠)

* * *

- الموت القصير هو الخير الأعظم في الحياة البشرية .

بليينوس الأكبر (حوالي السنة ٧٧)

* * *

- هناك دواء لكل شيء، ما عدا الموت .

بوناكتور دي بيريه (١٥٥٨)

* * *

- ثلاثة تدخل البيوت دونما استئذان، الديون، والشيخوخة،
والموت .

- الحياة العقيمة موت مسبق . غوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢)

* * *

أروع ما قيل في الموت - ٣م

- لا الشمس ولا الموت يمكنهما التحديق.

سرفانتيس (١٦١٣)

* * *

- ينبغي عدم تحريك رماد الموتى.

انطونيو بيريز (١٥٩٨)

* * *

- ليس ثمة أي قلعة تحمي من الموت.

ب.ج. مارتين (١٨٥٩)

* * *

- الموت حاصد لا يعرف القيلولة.

سرفانتيس (١٦١٥)

* * *

- هناك أموات يرتاحون، وآخرون لا يعرفون الراحة.

بيريز غالدوس (١٩٠٩)

* * *

- للحيّ أصدقاء قليلون، وليس للميت أحد.

موليير (١٦٥٣)

* * *

- المرء لا يموت إلا مرة واحدة، وذلك لمدة طويلة.

موليير (١٦٥٣)

* * *

- الموت لا يفاجيء الحكيم أبدًا، فهو مستعد دومًا للرحيل.
لافونتين (١٦٧٨)

* * *

- البشرية تتألف من أموات أكثر منها من أحياء.
أوغست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧)

* * *

- الموت ليس غدًا.
جول فاليس

* * *

- هناك أموات ينبغي قتلهم.
ف. دينوايه (١٨١٨ - ١٨٦٩)
- حب العمل، الأسرة، الدين، الفن، الوطنية هي كلمات لا معنى
لها بالنسبة إلى من يموت جوعًا.
أو. هنري (١٨٦٢ - ١٩١٠)

* * *

- ليس الموت الحقيقة النهائية. إنه يبدو لنا أسود، كما تبدو لنا
السماء زرقاء، ولكنه لا يسود الوجود، مثلما لا يلطخ اللازورد السماوي
جناحي الطير.

رابندراناث طاغور (١٨٦١ - ١٩٤١)

* * *

- إن الموت، هو في النهاية، المنتصر الوحيد.

ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣)

(قول موجه منه إلى الجنرال ديغول)

* * *

- ليس الموت سوى فزاعة.

سقراط (القرن الخامس ق.م.)

* * *

- ليس الموت هو الرهيب، بل الموت المخزي.

إبكتيتس (مطلع القرن الثاني)

* * *

- البشر يخشون الموت مثلما يخشى الأولاد الظلمات.

فرنسيس بايكون (١٦٠٥)

* * *

- كلما كان الرجل فاضلاً، قلّ خوفه من الموت.

صمويل دجونسون (١٦ أيلول ١٧٧٧)

* * *

- التألم ولا الموت: هوذا شعار البشر.

لافونتين (١٦٦٨)

* * *

- الخوف من الموت يعني تكريم الحياة كثيرًا.

توما جوفروي (١٨٣٦)

* * *

- من يتقبل الموت بسهولة ليس امرأً بائسًا.

سينيكا (حوالي السنة ٥٥)

* * *

- من يحتقر حياته يكن سيد حياة الآخرين.

سينيكا (حوالي السنة ٦٤)

* * *

- هناك أسباب مختلفة لاحتقار الحياة، ولكن ليس ثمة مبرر لاحتقار الموت.

لاروشفوكو (١٦١٣ - ١٦٨٠)

* * *

- الموتى يذهبون بسرعة.

برغر (١٧٤٧ - ١٧٩٤)

* * *

- الميت منذ ستة أشهر ميت مثل آدم.

ه.ح. بون (١٨٥٥)

* * *

الفصل الثالث: من أقوال الشعراء العرب

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميْتُ ميْتُ الأحياءِ
إنما الميْتُ من يعيش كئيِّبًا كاسفًا باله قليل الرجاءِ

* * *

كلُّ ابن أنثى وإن طالَّت سلامته يومًا على آلهِ حذباءٌ محمولُ
كعب بن زهير

* * *

وما المرءُ إلَّا كالهِلالِ وضوئهِ يوافي تمام الشهر ثم يغيبُ
* * *

وإذا المنيةُ أنشبت أظفارها ألفيت كلَّ تميمٍ لا تنفعُ
أبو ذؤيب الهذلي

* * *

لعمرك إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى لكالطُّولِ المرخى وثنياءُ باليدِ
طرفة بن العبد

* * *

ومن لم يَمِتْ بالسيفِ مات بغيره تنوَّعتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ
* * *

مشيناها خُطى كُتبت علينا ومن كُتبت عليه خُطى مشاها
ومن كانت منيته بأرضٍ فليس يموتُ في أرضٍ سواها

* * *

إذا لم يكن من الموت بدُّ فمن العار أن تموت جباناً
المتنبي

* * *

كم مات قومٌ وما مات مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أحياء

* * *

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بدّ يوماً أن تُردَّ الودائع
لبيد بن ربيعة

* * *

وقد فارق الناسُ الأحبة قبلنا وأعيا دواء الموت كلُّ طبيب
المتنبي

* * *

الموت داءٌ لا دواءَ له إلا التقى والعملُ الصالحُ

* * *

للموت فينا سهامٌ وهي صائبةٌ وكلّ نعيمٍ لا محالةً زائلٌ
لبيد بن ربيعة

* * *

ليت شعري فإنني لست أدري أيّ يوم يكون آخر عمري
وبأيّ البلاد تُقبضُ روحي وبأيّ البقاع يُحفر قبري
أبو العتاهية

* * *

للموت فينا سهام وهي صائبة من فاته اليوم سهم لم يفته غدا

* * *

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي هو قبل الموت بانيها
الإمام علي بن أبي طالب (حوالي ٦٠٠ - ٦٦١)

* * *

موت التقي حياة لا نفاد لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء

* * *

فلو كان هول الموت لا شيء بعده لهان علينا الأمر واحتقر الأمر
ولكنه حشر ونشر وجنة ونار وما قد يستطيل به الخبر

* * *

من كان يرجو أن يعيش فإنني أصبحت أرجو أن أموت فأعتقا
في الموت ألف فضيلة لو أنها عُرِفَت لكان سبيله أن يعشقا

* * *

والمرء يفرح بالأيام يقطعها وكل يوم مضى يُدني من الأجل

* * *

وأيدي الندي في الصالحين قروض كفى بالموت نأيا واغترابا

* * *

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت، ولكنّ ذا أفطع من ذاك لذّ السؤال

* * *

جزى الله عنا الموت خيرًا فإنه أبرُّ بنا من كل برّ وأرأف
يعتجل تخلص النفوس من الأذى ويُدني من الدار التي هي أشرف

* * *

وإذا كان منتهى العمر موت فسواء طويله والقصير

* * *

الموت باب وكل الناس تدخله يا ليت شعري بعد الباب ما الدارُ

* * *

في فرقة الأحباب شغل شاغل والموت صدقًا فرقة الإخوان

* * *

كُتب الموتُ على الخلق فكّم فلّ من جيشٍ وأفنى من دولٍ
ابن الوردي

* * *

لما أتى معاوية بن أبي سفيان موتُ زياد بن أبيه توجّع، ثمّ قال:

وأفردتُ سهمًا في الكنانة واحدًا سيُرمى به أو يكسر السهم كاسِرُهُ

* * *

ومن كان ذا بابٍ شديدٍ وحاجِبٍ فعَمَّا قليل يهجر الباب حاجِبُهُ

* * *

ألا إنّما جسمي لروحي مطيَّةٌ ولا بدّ يومًا أن يُعرَى من الرحلِ
ابن المعتز

* * *

ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرىء مثله فيما مضى
هلك المداوي والمداوى والذي جلب الدواء وباعه ومن اشترى

* * *

سُبِقْنَا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئةٍ وذهوبٍ
تملُّكها الآتي تملُّكٌ سالبٍ وفارقها الماضي فراقٌ سليبٍ
المتنبي

* * *

وما المرءُ إلَّا كالشهاب وضوئهِ يصيرُ رمادًا بعد إذ هو ساطعُ
ليد بن ربيعة

* * *

وأحكم بيتٍ قالته العربُ في وَصفِ الموت بيتُ أُمِّةٍ بن أبي
الصُّلت، حيث يقول:

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ مِنْ مَنِيتِهِ فِي بَعْضِ غِرَاتِهِ يُوَافِقُهَا
مَنْ لَمْ يُمُتْ عَبْطَةً يُمُتْ هَرَمًا لِلْمَوْتِ كَأْسُ وَالْمَرْءِ ذَائِقُهَا

* * *

وقال أضحج بن الفرج: كان بنجران عابدًا يصيح في كل يوم صيحتين
بهذه الأبيات:

قَطَعَ الْبَقَاءَ مَطَالِغُ الشَّمْسِ وَغَدُوُّهَا مِنْ حَيْثُ لَا تُمَسِّي
وَطَلُوعُهَا حَمَرَاءُ قَانِيَةً وَغُرُوبُهَا صَفَرَاءُ كَالْوَزْسِ
الْيَوْمُ يُخْبِرُ مَا يَجِيءُ بِهِ وَمَضَى بِفَضْلِ قَضَائِهِ أَمْسِ

* * *

قال آخر:

زَيَّنْتَ بَيْتَكَ جَاهِلًا وَعَمَرْتَهُ وَلَعَلَّ غَيْرَكَ صَاحِبُ الْبَيْتِ
مَنْ كَانَتْ الْأَيَّامُ سَائِرَةً بِهِ فَكَأَنَّهُ قَدْ حَلَّ بِالْمَوْتِ
وَالْمَرْءُ مُرْتَهَنٌ بِسَوْفٍ وَلَيْتَنِي وَهَلَاكُهُ فِي السَّوْفِ وَاللَّيْتِ
لِلَّهِ دَرٌّ فَتَى تَدَبَّرَ أَمْرَهُ فَغَدًا وَرَاحَ مُبَادِرَ الْمَوْتِ

* * *

وقال صريع الغواني:

كَمْ رَأَيْنَا مِنْ أَنْاسٍ هَلَكُوا قَدْ بَكَوْا أَخْبَابَهُمْ ثُمَّ بُكُوا
تَرَكَوْا الدُّنْيَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ وَدُّهُمْ لَوْ قَدَّمُوا مَا تَرَكَوْا
كَمْ رَأَيْنَا مِنْ مُلُوكٍ سُوقَةً وَرَأَيْنَا سُوقَةً قَدْ مَلَكُوا

* * *

وقال الصَّلَتَانِ العَبْدِيَّ :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرَ رَ كَرُ الْعَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيِّ
إِذَا لَيْلَةٌ أَهْرَمَتْ يَوْمَهَا أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَتِي
نَرُوحُ وَنَغْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةٌ مَنَ عَاشَ لَا تَنْقُضِي
تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

* * *

وكان سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ يَسْتَحْسِنُ قَوْلَ عَبْدِ بْنِ زَيْدٍ :

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ثُمَّ عَادَ مِنْ بَعْدِهَا وَثُمُودُ
بَيْنَمَا هُمْ عَلَى الْأَسِيرَةِ وَالْأَذَى مَاطٍ أَفْضَتْ إِلَى التُّرَابِ الْخُدُودُ
وَصَحِيحُ أَمْسَى يَعُودُ مَرِيضًا وَهُوَ أَدْنَى لِلْمَوْتِ مِمَّنْ يَعُودُ
ثُمَّ لَمْ يَنْقُضِ الْحَدِيثُ وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَذَاكَ الْوَعِيدُ

* * *

وقال أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فِي وَصْفِ الْمَوْتِ :

كَأَنَّ الْأَرْضَ قَدْ طُوِيَتْ عَلَيَّا وَقَدْ أُخْرِجْتُ مِمَّا فِي يَدَيَا
كَأَنَّ قَدْ صِرْتُ مُتَفَرِّدًا وَحِيدًا وَمُرْتَهَنًا هُنَاكَ بِمَا لَدَيَا
كَأَنَّ الْبَاكِيَّاتِ عَلَيَّ يَوْمًا وَلَا يُغْنِي الْبُكَاءُ عَلَيَّ شَيْئًا
ذَكَرْتُ مَنِيَّتِي فَنَعَيْتُ نَفْسِي أَلَا أَسْعِدُ أَخِيكَ يَا أَخِيَا

* * *

وقال :

سَتَخْلُقُ جِدَّةً وَتَجُودُ حَالٌ وَعِنْدَ الْحَقِّ تُخْتَبَرُ الرُّجَالُ

وللدُّنيا ودائعُ في قلوبِ بها جَرَتِ القَطيعةُ والوصالُ
تَخَوُّفُ ما لَعَلَّكَ لا تَراه وترجُو ما لعلَّكَ لا تَنالُ
وقد طَلَعَ الهِلَالُ لَهْذِمِ عُمري وَأَفْرَحُ كُلِّما طَلَعَ الهِلالُ

* * *

وله أيضًا:

مَنْ يَعْشُ يَكْبُزُ وَمَنْ يَكْبُرُ يُمُتْ والمَنايا لا تُبالي من أَتَتْ
نَحْنُ فِي دارِ بَلاءٍ وَأَذَى وشَقاءٍ وَعَناءٍ وَعَنتِ
مَنْزَلٌ ما يَثْبُتُ المَرءُ بِهِ سالِماً إِلا قَليلاً إِنْ ثَبَتِ
أَيُّها المَغْرورُ ما هَذا الصُّبا لو نَهَيْتُ النَفْسَ عَنْه لانتَهَتْ
رَحِمَ اللهُ أَمراً أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ إِذْ قالَ خَيراً أَوْ سَكَتِ

* * *

وقال ابن عبد ربه:

أَتَلَهُوَ بَينَ باطِيَةِ وَزِيرِ وَأَنتَ مِنَ الهِلاكِ عَلى شَفِيرِ
فَيا مَنْ غَرَّهُ أَمَلٌ طَوِيلٌ يُؤدِّيهِ إِلى أَجَلٍ قَصِيرِ
أَتَفْرَحُ وَالْمَنيَّةُ كُلُّ يَومٍ تُرِيكَ مَكانَ قَبْرِكَ فِي القُبُورِ
هي الدُّنيا فَإِنْ سَرَّتْكَ يَوماً فَإِنَّ الحُزْنَ عاقِبَةُ السُّرُورِ
سَتُسَلِّبُ كُلَّ ما جَمَعْتَ مِنْها كَعارِيَةٍ تُرَدُّ إِلى المَعِيرِ
وَتَغْتاضُ اليَقينَ مِنَ التَّظَنِّي وَدَارَ الحَقِّ مِنَ دارِ الغُرُورِ

* * *

ولأبي العتاهية:

وَلَيْسَ مِنْ مَنْزِلِ يَأْوِيهِ ذُو نَفْسٍ إِلَّا وَلِلْمَوْتِ سَيْفٌ فِيهِ مَسْئُولُ

* * *

وله أيضًا:

مَا أَقْرَبَ الْمَوْتَ مَنَا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنَا
كَأَنَّهُ قَدْ سَقَانَا بِكَأْسِهِ حَيْثُ كُنَّا

* * *

وله أيضًا:

أَوْمَلُ أَنْ أُخْلِدَ وَالْمَنَايَا يَثْبُنَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ النَّوَاجِي
وَمَا أَذْرِي إِذَا أَمْسَيْتُ حَيًّا لَعَلِّي لَا أَعِيشُ إِلَى الصُّبْحِ

* * *

وقال الغزّال:

أَضْبَحْتُ وَاللَّهِ مَجْهُودًا عَلَى أَمَلٍ
وَمَا أَفَارِقُ يَوْمًا مَنْ أَفَارِقُهُ
أَنْظُرُ إِلَيَّ إِذَا أُذْرِجْتُ فِي كَفْنِي
وَأَقْعُدُ قَلِيلًا وَعَايِنَ مَنْ يُقِيمُ مَعِي
هَيْهَاتَ كُلُّهُمْ فِي شَأْنِهِ لَعِبٌ
يَرْمِي التُّرَابَ وَيَخْثُوهُ عَلَى خَدِّي
مَنْ يُشَيِّعُ نَعْشِي مِنْ ذَوِي وَدِّي
إِلَّا حَسِبْتُ فِرَاقِي آخِرَ الْعَهْدِ
وَأَنْظُرُ إِلَيَّ إِذَا أُذْرِجْتُ فِي اللَّحْدِ
مِنْ الْحَيَاةِ قَصِيرٍ غَيْرِ مُمْتَدِّ

* * *

وقال أبو العتاهية:

نَعَى لَكَ ظِلَّ الشَّبَابِ الْمَشِيبُ وَنَادَتْكَ بِأَسْمِ سِوَاكَ الْخُطُوبُ

فَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِرَيْبِ الْمَوْتِ فَإِنَّ الَّذِي هُوَ آتٍ قَرِيبٌ
وَقَبْلَكَ دَاوَى الطَّبِيبِ الْمَرِيضِ فَعَاشَ الْمَرِيضُ وَمَاتَ الطَّبِيبُ
يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ يَتُوبُ فَكَيْفَ تَرَى حَالَ مَنْ لَا يَتُوبُ

* * *

وقال أبو الأسود الدؤلي:

أَيُّهَا الْأَمِلُ مَا لَيْسَ لَهُ رَبِّمَا غَرَّ سَفِيهَا أَمَلُهُ
رُبِّ مَنْ بَاتَ يُمَنِّي نَفْسَهُ حَالَ مَنْ دُونَ مُنَاهُ أَجَلُهُ
وَالْفَتَى الْمُخْتَالُ فِيمَا نَابَهُ رَبِّمَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ حِيلُهُ
قُلْ لِمَنْ مَثَلٌ فِي أَشْعَارِهِ يَهْلِكُ الْمَرْءُ وَيَبْقَى مَثَلُهُ
نَافِسُ الْمُخْسَنِ فِي إِحْسَانِهِ فَسَيَكْفِيكَ سَنَاءُ عَمَلِهِ

* * *

الباب الرابع

عند الاحتضار

لَقِيَ أَبُو بَكْرٍ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ ، فَرَأَاهُ كَاسِفًا مُتَغَيِّرًا لَوْنُهُ ، فَقَالَ : مَا لِي أَرَاكَ مُتَغَيِّرًا لَوْنُكَ ؟ قَالَ : لِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَمْ أَسْأَلْهُ عَنْهَا ؛ قَالَ وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : إِنِّي أَعْلِمُ كَلِمَةً مَنْ قَالَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ مَحْصَتٌ ذُنُوبِهِ ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ ، فَأَنْسِيتُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا . قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَعْلَمُكُمَهَا ، وَهِيَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

* * *

أَبُو الْحُبَابِ قَالَ : لَمَّا أُحْتُضِرَ مُعَاذٌ قَالَ لَخَادِمَتِهِ : وَيْحَكَ ! هَلْ أَصْبَحْنَا ؟ قَالَتْ : لَا ، ثُمَّ تَرَكَهَا سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : انْظُرِي ، فَقَالَتْ : نَعَمْ ؛ قَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ صَبَاحٍ إِلَى النَّارِ . ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالْمَوْتِ ، مَرْحَبًا بِزَائِرِ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ ، أَفْلَحَ مَنْ تَدِيمَ . اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أُحِبِّ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا لِحَزْزِي الْأَنْهَارِ ، وَغَرَسِ الْأَشْجَارِ ، وَلَكِنْ لُمُكَابِدَةِ اللَّيْلِ الطَّوِيلِ ، وَظُمَا الْهَوَاجِرِ فِي الْحَرِّ الشَّدِيدِ ، وَمُزَاحِمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكْبِ فِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ .

* * *

وَلَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاةُ عَمَرُ بْنُ عُتْبَةَ قَالَ لِرَفِيقِهِ : نَزَلَ بِي الْمَوْتُ وَلَمْ أَتَأَهَّبْ لَهُ . اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ مَا سَنَحَ لِي أَمْرَانِ لَكَ فِي أَحَدِهِمَا رِضًا وَلِي فِي الْآخَرِ هَوًى ، إِلَّا آثَرْتُ رِضَاكَ عَلَى هَوَايَ .

* * *

ولما حضرت الوفاة عُمر بن الخطاب: قال لولده عبد الله بن عمر: ضَعْ خَدِّي عَلَى الْأَرْضِ عَلَّ رَبِّي أَنْ يَتَعَطَّفَ عَلَيَّ وَيَرْحَمَنِي.

* * *

قال ابن السمَّك: دخلتُ على يزيد الرِّقَاشي وهو في الموت، فقال لي: سَبِّقْنِي الْعَابِدُونَ وَقُطِّعْ بِي، وَاهْلِفَاه!

* * *

موسى الأَسْوَارِي قال: دخلتُ على أَرْدَا مَرْدٍ وهو ثَقِيلٌ فَإِذَا هُوَ كَالْخُفَّاشِ^(١) لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا رَأْسُهُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا هَذَا، مَا حَالُكَ؟ قَالَ: وَمَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بَغِيرَ زَادٍ، وَيَنْطَلِقُ إِلَى مَلِكٍ عَدْلٍ بَغِيرَ حُجَّةٍ، وَيَدْخُلُ قَبْرًا مُوحِشًا بَغِيرَ مُؤْنَسٍ؟

* * *

قال سقراط لما تجرَّع السم: اخْلَصْ اخْلَصْ يَا كَثِيفٌ، وَاصْعِدْ يَا مَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْأَدْنَسَ.

* * *

وقال كونفوشيوس:

لَقَدْ عَلِمْتُ الْبَشَرَ كَيْفَ يَعِيشُونَ.

* * *

وقال النبي محمد (ﷺ):

بَلِ الرِّفِيقُ الْأَعْلَى، بَلِ الرِّفِيقُ الْأَعْلَى.

* * *

(١) يشير إلى ضالته. وفي بعض الأصول: «كالخفاء».

وقال الخليفة عمر بن الخطاب:
ثكلت عمر أمه إن لم يغفر له ربه.

* * *

وقال الإمام علي وقد سأله القوم أن يعظهم، وكان يجود بنفسه
الكريمة: يعظكم سكوتي، وخفوت أطرافي.

* * *

وقال المأمون:
يا من لا يموت ارحم من يموت.
* * *

وقال أحد ملوك الفراعنة:
إنني أستقبل الموت سعيدًا مطمئنًا لأنني سأتحرّر من أعباء الحكم
والنساء.

* * *

قال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك: كيف تجدك يا بُني؟ قال:
أجدني في الموت فأحتسبني، فإن ثواب الله خير لك مني؛ قال: والله يا
بُني لأن تكون في ميزاني أحب لي من أن أكون في ميزانك؛ قال: وأنا والله
لأن يكون ما تُحب أحب إلي من أن يكون ما أُحب.

* * *

لَمَّا أَحْتَضِرَ عمرُ بن عبد العزيز، رحمه الله، أَسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ مَسْلَمَةُ بْنُ
عبد الملك، فَأْذِنَ لَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُخَفِّفَ الْوَقْفَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ، وَقَفَ عِنْدَ
رَأْسِهِ، فَقَالَ: جَزَاكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنَّا خَيْرًا، فَلَقَدْ أَلَّنتَ لَنَا قُلُوبًا

كانت علينا قاسية، وجعلت لنا في الصالحين ذِكْرًا.

* * *

حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك، قال: كانت فاطمة جالسة عند رسول الله ﷺ: فترا كبت عليه كُرب الموت، فرفع رأسه وقال: وا كُرباه! فبكت فاطمة وقالت: واكُرباه لكُربك يا أبتاه! قال: لا كُرب على أبيك بعد اليوم.

* * *

وقال شارلمان:

مولاي أسلمتك روعي، وأوصيك بها.

* * *

وقال الحجاج بن يوسف:

اللهم اغفر لي.. فانهم يزعمون أنك لا تغفر لي.

* * *

وقال غوتيه:

أريد النور.

* * *

وقال هويس:

سائب وثبة كبرى في سبيل الأبدية.

* * *

وقال ميرابو لخادمه:

أسند هذا الرأس، فإنه أقوى رأس في فرنسا.

* * *

وقال «كوزمونكهوس»: وهكذا يجب أن نفرق يا جسدي بعد أن
اتفقنا سنوات طويلة. وإنه لمن المحزن أن تنتهي صحبتنا.

* * *

وقال سعد زغلول: أنا انتهيت.

* * *

وقال أمير الشعراء أحمد شوقي: إني امرؤ انتهى فسلام على أولادي
وأصدقائي.

* * *

قالت عائشة وأبوها أبو بكر الصديق يحتضر:
وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ رَبِيعَ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ^(١)
قالت عائشة: فنظر إليّ كالغضبان وقال: ذلك رسول الله ﷺ. ثم
أغمي عليه، فقالت:
لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَ جَتِ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ^(٢)
قالت: فنظر إليّ كالغضبان وقال لي: قُولِي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ
الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾^(٣). ثم قال: انظروا مُلَاءَتِي
فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فَإِنَّ الْحَيَّ أَحْوَجُ إِلَى الْجَدِيدِ مِنَ الْمَيِّتِ.

* * *

وقال معاوية حين حضرته الوفاة:
أَلَا لَيْتَنِي لَمْ أَغْنِ فِي الْمُلْكِ سَاعَةً وَلَمْ أَكُ فِي اللَّذَاتِ أَغْشَى النَّوَاطِرِ

(١) البيت من قصيدة لأبي طالب.

(٢) البيت من قصيدة لحاتم بن عبدالله.

(٣) ق: ١٩ .

وَكُنْتُ كَذِي طَمَرَيْنِ عَاشٍ بِيُلْغَةٍ لِيَالِي حَتَّى زَارَ ضَنْكَ الْمَقَابِرِ

* * *

لَمَّا ثَقُلَ مُعَاوِيَةُ وَيَزِيدُ غَائِبٌ، أَقْبَلَ يَزِيدُ، فَوَجَدَ عُثْمَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ بَنَ سُفْيَانَ جَالِسًا، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، وَدَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ، وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَكَلَّمَهُ يَزِيدُ، فَلَمْ يُكَلِّمْهُ، فَبَكَى يَزِيدُ وَتَضَوَّرَ^(١) مُعَاوِيَةَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بُنِي، إِنَّ أَعْظَمَ مَا أَخَافُ اللَّهَ فِيهِ مَا كُنْتُ أَصْنَعُ لَكَ. يَا بُنِي، إِنِّي خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ إِذَا مَضَى لِحَاجَتِهِ وَتَوَضَّأَ، أَصَبَ الْمَاءَ عَلَى يَدَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَى قَمِيصٍ لِي قَدْ أَنْخَرَقَ مِنْ عَاتِقِي، فَقَالَ لِي: يَا مُعَاوِيَةُ: أَلَا أَكْسُوكَ قَمِيصًا؟ قُلْتُ: بَلَى: فَكَسَانِي قَمِيصًا لَمْ أَلْبَسْهُ إِلَّا لَبَسَةً وَاحِدَةً، وَهُوَ عِنْدِي؛ وَاجْتَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَخَذْتُ جُزَاةَ شَعْرِهِ وَقَلَامَةً أَظْفَارِهِ فَجَعَلْتُ ذَلِكَ فِي قَارُورَةٍ، فَإِذَا مِتُّ يَا بُنِي فَاغْسِلْنِي، ثُمَّ أَجْعَلْ ذَلِكَ الشَّعْرَ وَالْأَظْفَارَ فِي عَيْنَيَّ وَمِنْخَرِي وَفَمِي، ثُمَّ اجْعَلْ قَمِيصَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شِغَارًا^(٢) مِنْ تَحْتِ كَفْنِي، إِنْ نَفَعَ شَيْءٌ نَفَعَ هَذَا.

* * *

لَمَّا احْتَضَرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، جَمَعَ بَيْنَهُ فَقَالَ: يَا بَنِي، مَا تُغْنُونَ عَنِّي مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْئًا؛ قَالُوا: يَا أَبَانَا، إِنَّهُ الْمَوْتُ، وَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ لَوْقَيْنَاكَ بَأَنْفُسِنَا؛ فَقَالَ: أَسْنِدُونِي، فَأَسْنِدُوهُ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنِي فَلَمْ أَتَمِرْ، وَزَجَرْتَنِي فَلَمْ أَزْدَجِرْ، اللَّهُمَّ لَا قُوَّةَ فَاَنْتَصِرْ، وَلَا بَرِيءَ فَاَعْتَذِرْ، وَلَا مُسْتَكْبِرَ بَلْ مُسْتَغْفِرٌ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَلَمْ يَزَلْ يُكْرِّرُهَا حَتَّى مَاتَ. قَالَ: وَأَخْبَرْنَا رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ قَالَ لِبْنِيهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: إِنِّي لَسْتُ فِي الشُّرْكِ الَّذِي لَوْ مِتُّ عَلَيْهِ أَدْخِلْتُ النَّارَ، وَلَا فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي لَوْ مِتُّ عَلَيْهِ أَدْخِلْتُ

(١) تَضَوَّرَ: تَلَوَّى مِنَ الْوَجَعِ.

(٢) الشِّغَارُ: مَا يَلْبَسُ فَوْقَ الْجَسَدِ مَبَاشَرَةً.

الجنة ، فمهما قَصُرْتُ فيه فَإِنِّي مُسْتَمْسِكُ بِهَا إِلَّا اللَّهَ ، وَقَبَضَ عَلَيْهَا يَدَهُ ،
وَقَبَضَ لَوْقَتَهُ . فَكَانَتْ يَدُهُ تُفْتَحُ ، ثُمَّ تُتْرَكُ فَتَنْقَبِضُ . وَقَالَ لِبَنِيهِ : إِنَّ أَنَا مَتُّ
فَلَا تَبْكُوا عَلَيَّ ، وَلَا يَتَّبِعْنِي مَادِحٌ وَلَا نَائِحٌ ، وَشُئُوا عَلَيَّ التَّرَابَ شَأْنًا ، فَلَيْسَ
جَنْبِي الْأَيْمَنُ أَوْلَى بِالتَّرَابِ مِنَ الْأَيْسَرِ ، وَلَا تَجْعَلُوا فِي قَبْرِي خَشَبَةً وَلَا
حَجَرًا ، وَإِذَا وَارِثُومُونِي ، فَاقْعَدُوا عِنْدَ قَبْرِي قَدَرًا نَحْرَ جَزُورٍ وَتَفْصِيلَهَا
أَسْتَأْنِسُ بِكُمْ .

* * *

وقال ويلسون :

أشكر الله على أنني أتممت واجبي .

* * *

وقال وليم هنتر :

ليت عندي من القوة ما يمكنني من تحريك القلم ، حتى أشرح
سهولة الموت ولذته .

* * *

وقال إسماعيل صبري :

يا موتُ خُذْ مَا أَبْقَيْتَ الْأَيَّامَ وَالسَّاعَاتُ مِنِّي
بَيْنِي وَبَيْنَكَ خُطْوَةً إِنَّ تَخْطُهَا خَفَّفْتَ عَنِّي

* * *

وقال شوبان :

أين حبيبتي^(١) لقد وعدتني بأنني سأموت على ذراعيها .

* * *

(١) حبيبته هي الكاتبة جورج صاند .

الباب الخامس

عند القبر

الفصل الأول: القول عند المقابر

قال بعضهم: خرجنا مع زيد بن علي نريد الحج، فلما بلغنا النباح^(١) وصبرنا إلى مقابرها التفت إلينا، فقال:

لِكُلِّ أَنَاسٍ مَقْبَرٌ بِفَنَائِهِمْ فَهُمْ يَنْقُصُونَ وَالْقُبُورُ تَزِيدُ
فَمَا إِنْ تَزَالَ دَارٌ حَيٌّ قَدْ أَخْرَبَتْ وَقَبْرٌ بِأَفْنَاءِ الْبُيُوتِ جَدِيدُ
هُمْ جِيزَةُ الْأَحْيَاءِ أَمَا مَزَارُهُمْ فَدَانٍ وَأَمَّا الْمُلتَقَى فَبَعِيدُ

* * *

وقال: مررت بيزيد الرقاشي وهو جالس بين المدينة والمقبرة، فقلت له: ما أجلسك هاهنا؟ قال: أنظر إلى هذين العسكرين، فعسكر يقذف الأحياء وعسكر يلتقم الموتى. ثم نادى بأعلى صوته: يا أهل القبور الموحشة، قد نطق بالخراب فناؤها، ومهد بالتراب بناؤها، فمحلها مقترب، وساكنها مغترب، لا يتواصلون تواصل الإخوان، ولا يتزاورون تزاور الجيران، قد طحنهم بكلكلة البلى، وأكلتهم الجنادل والثرى.

* * *

(١) النباح: اسم موضع.

وكان عليُّ بن أبي طالب إذا دَخَلَ المقبرة قال: السلامُ عليكم يا أهل الدِّيار الموحِشة، والمَحالِّ المُقْفِرة، من المؤمنين والمؤمنات، اللهم اغفر لنا ولهم، وتَجَاوَزْ بعفوك عَنَّا وعنهم. ثم يقول: الحمد لله الذي جعل لنا الأرض كِفَاتًا^(١)، أحياء وأمواتا، والحمد لله الذي منها خَلَقْنَا و[جعل] إليها مَعَادِنَا، وعليها مَحْشَرُنَا؛ طوبى لمن ذَكَرَ المَعَاد، وعمل الحسنات، وقَنَّعَ بالكَفَاف، ورَضِيَ عن الله عزَّ وجلَّ.

* * *

وكان النبي ﷺ إذا دَخَلَ المَقبرة قال: السلامُ عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.

* * *

وكان الحَسَنُ البَصْرِيُّ إذا دخل المقبرة قال: اللهم رَبِّ هذه الأجساد البالية، والعظام النخرة، التي خَرَجْتَ من الدنيا وهي بك مُؤمنة، أَذْخِلْ عليها رَوْحًا منك وسَلَامًا مَنًّا.

* * *

وكان عليُّ بن الفضل إذا دَخَلَ المقبرة يقول: اللهم أَجْعَلْ وَفَاتَهُمْ نَجَاةً لهم مما يَكْرَهُونَ، وَأَجْعَلْ حِسَابَهُمْ زِيَادَةً لهم فيما يُحِبُّونَ.

* * *

(١) كِفَاتًا: ملجأ وحزرا.

الفصل الثاني: الوقوف على القبور وتأين الموتى

وَقَفَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: قُلْتَ فَقَبِلْنَا، وَأَمَرْتَ فَحَفِظْنَا، وَبَلَغْتَ عَنْ رَبِّكَ فَسَمِعْنَا. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(١). وَقَدْ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَجِئْنَاكَ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا. فَمَا بَقِيَتْ عَيْنٌ إِلَّا سَأَلَتْ.

* * *

وَقَفَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ عَلَى قَبْرِ أَبِيهَا ﷺ، فَقَالَتْ:
إِنَّا فَقَدْنَاكَ فَقَدَ الْأَرْضِ وَابِلَهَا وَغَابَ مُذْ غَبَتْ عَنَّا الْوَحْيُ وَالْكِتَابُ
فَلَيْتَ قَبْلَكَ كَانَ الْمَوْتُ صَادَفَنَا لَمَا نُعِيَتْ وَحَالَتْ دُونَكَ الْكِتَابُ

* * *

حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: لَمَّا فَرَعْنَا مِنْ دَفْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَتْ عَلَيَّ فَاطِمَةُ فَقَالَتْ: يَا أَنَسُ، كَيْفَ طَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَخْتُوا عَلَى وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ، ثُمَّ بَكَتْ وَنَادَتْ: يَا أَبَتَاهُ! أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهُ! مِنْ رَبِّهِ مَا أَدْنَاهُ، يَا أَبَتَاهُ! مَنْ رَبُّهُ نَادَاهُ، يَا أَبَتَاهُ! إِلَى

(١) النساء: ٦٤.

جبريل نثعاه، يا أبتاه! جنة الفردوس مأواه. قال: ثم سكثت، فما زادت شيئاً.

ولما دُفِن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقبل عبد الله بن مسعود وقد فاتته الصلاة عليه، فوقف على قبره يبكي ويطحِر رداءه، ثم قال: والله لئن فاتتني الصلاة عليك لا فاتني حُسْنُ الثناء، أما والله لقد كنت سخيّاً بالحق، بخيلاً بالباطل، ترضى حين الرضا، وتسخط حين السخط، ما كنت عياباً ولا مداحاً، فجزاك الله عن الإسلام خيراً.

* * *

ووقف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على قبر خباب، فقال: رحم الله خباباً، لقد أسلم راعباً، وجاهد طائعاً، وعاش زاهداً، وأبتلي في جسمه فصبر، ولن يُضَيِّعَ الله أجر من أحسن عملاً.

* * *

ولما تُوفي عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، قام الحسن بن علي رضي الله عنهما، فقال: أيها الناس، إنه قبض فيكم الليلة رجل لم يسبقه الأولون ولم يذركه الآخرون، قد كان رسول الله ﷺ يبعثه فيكتفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله، لا يثنى حتى يفتح الله له، ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أعدّها لخادم له.

* * *

عبد الرحمن بن الحسن بن محمد بن مُضْعَب قال: لما مات داود الطائي

تَكَلَّمَ ابْنُ السَّمَاكِ فَقَالَ : إِنَّ دَاوُدَ نَظَرَ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ آخِرَتِهِ ، فَأَغْشَى بَصَرُ الْقَلْبِ بَصَرَ الْعَيْنِ ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى مَا إِلَيْهِ تَنْظُرُونَ ، وَكَأَنَّكُمْ لَمْ تَنْظُرُوا إِلَى مَا إِلَيْهِ نَظَرُ ، وَأَنْتُمْ مِنْهُ تَعْجِبُونَ ، وَهُوَ مِنْكُمْ يَعْجَبُ ، فَلَمَّا رَأَى رَأَى مَفْتُونِينَ مَغْرُورِينَ ، قَدْ أَذْهَلَتِ الدُّنْيَا عُقُولَكُمْ ، وَأَمَاتَتْ بِحُبِّهَا قُلُوبَكُمْ ، أَسْتَوْحَشَ مِنْكُمْ ، فَكُنْتُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ حَسِبْتُهُ حَيًّا وَسَطَ أَفْوَاتٍ . يَا دَاوُدَ ، مَا أَعْجَبَ شَأْنَكَ بَيْنَ أَهْلِ زَمَانِكَ ! أَهَنْتَ نَفْسَكَ وَإِنَّمَا تُرِيدُ إِكْرَامَهَا ، وَأَتَعَبْتَهَا وَإِنَّمَا تُرِيدُ رَاحَتَهَا ، أَخَشَشْتَ الْمَطْعَمَ وَإِنَّمَا تُرِيدُ طَيِّبَهُ ، وَأَخَشَشْتَ الْمَلْبَسَ وَإِنَّمَا تُرِيدُ لَيِّنَهُ ، ثُمَّ أَمَتَ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ ، وَقَبَرْتَهَا قَبْلَ أَنْ تُقْبَرَ ، وَعَذَّبْتَهَا قَبْلَ أَنْ تُعَذَّبَ ، سَجَنَتْ نَفْسَكَ فِي بَيْتِكَ وَلَا مُحَدِّثَ لَهَا وَلَا جَلِيسَ مَعَهَا ، وَلَا فِرَاشَ تَحْتِكَ ، وَلَا سِثْرَ عَلَى بَابِكَ ، وَلَا قُلَّةَ تُبْرَدُ فِيهَا مَاءُكَ ، وَلَا صَفْحَةَ يَكُونُ فِيهَا غَدَاؤُكَ وَعَشَاؤُكَ . يَا دَاوُدَ ، مَا تَشْتَهِي مِنَ الْمَاءِ بَارِدَهُ ، وَلَا مِنَ الطَّعَامِ طَيِّبَهُ ، وَلَا مِنَ اللَّبَاسِ لَيِّنَهُ ، بَلَى ، وَلَكِنْ زَهَدْتَ فِيهِ لَمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَمَا أَصْغَرَ مَا بِذَلِكَ وَمَا أَحَقَّرَ مَا تَرَكْتَ فِي جَنْبِ مَا رَغِبْتَ وَأَمَلْتَ ! لَمْ تَقْبَلْ مِنَ النَّاسِ عَطِيَّةً ، وَلَا مِنَ الْإِخْوَانِ هَدِيَّةً ، فَلَمَّا مِتَّ شَهَرَكَ رَبُّكَ بِفَضْلِكَ ، وَأَلْبَسَكَ رِذَاءَ عَمَلِكَ ، فَلَوْ رَأَيْتَ مَنْ حَضَرَكَ عَلِمْتَ أَنَّ رَبَّكَ قَدْ أَكْرَمَكَ وَشَرَّفَكَ .

* * *

وَقَفَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ عَلَى قَبْرِ أَخِيهِ فَأَنشَدَ :

فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَى قَتِيلًا رُزِئْتُهُ بِجَانِبِ قَوْسَى مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ
بَلَى إِنَّهَا تَغْفُو الْكُلُومَ وَإِنَّمَا تُوَكِّلُ بِالْأَذْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي

* * *

ووقف محمد بن الحنفية على قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما
فَخَنَقَتْهُ الْعَبْرَةُ، ثُمَّ نَطَقَ فَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ أَبَا مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا عَزَّتْ حَيَاتُكَ
فَلَقَدْ هَدَّتْ وَفَاتُكَ، وَلَنِعَمَ رُوحَ ضَمَمِهِ بَدَنُكَ، وَلَنِعَمَ الْبَدَنُ بَدَنُ ضَمَمِهِ كَفَنُكَ،
وكيف لا يكون كذلك وأنت بقية ولد الأنبياء، وسليل الهدى، وخامس
أصحاب الكساء^(١)، غَدَّتْكَ أَكْفُ الْحَقِّ، وَرُبِيتَ فِي حِجْرِ الْإِسْلَامِ، فَطَبْتُ
حَيًّا وَطَبْتُ مَيِّتًا، وَإِنْ كَانَتْ أَنْفُسُنَا غَيْرَ طَيِّبَةٍ بِفِرَاقِكَ، وَلَا شَاكَّةٌ فِي الْخِيَارِ
لَكَ.

* * *

وَوَقَفْتُ عَائِشَةُ عَلَى قَبْرِ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَتْ: نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَكَ، وَشَكَرَ
لَكَ صَالِحَ سَعْيِكَ، فَقَدْ كُنْتَ لِلدُّنْيَا مُذِلًّا بِإِذْبَارِكَ عَنْهَا، وَكُنْتَ لِلْآخِرَةِ مُعِزًّا
بِإِقْبَالِكَ عَلَيْهَا، وَلَمَّا كَانَ أَجَلَ الْحَوَادِثِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَزُّوكَ، وَأَعْظَمَ
الْمَصَائِبِ بَعْدَهُ فَقُدُّكَ، إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَيَعِدُ بِحُسْنِ الصَّبْرِ فَيْكَ وَحُسْنِ الْعَوَظِ
مِنْكَ، فَأَنَا أَنْتَجِزُ مَوْعُودَ اللَّهِ بِحُسْنِ الْعَزَاءِ عَلَيْكَ، وَأَسْتَعِضُّهُ مِنْكَ
بِالِاسْتِغْفَارِ لَكَ، فَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، تَوَدِّعَ غَيْرَ قَالِيَةٍ لَكَ، وَلَا زَارِيَةٍ
عَلَى الْقَضَاءِ فَيْكَ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ.

* * *

لَمَّا قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُجِّي بِثَوْبٍ، فَارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ

(١) أصحاب الكساء هم رسول الله ﷺ وفاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم السلام، وكان
رسول الله ﷺ جللهم معه بكساء ودعا لهم فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم
الرجس وطهرهم تطهيرا. وفي أصحاب الكساء نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنْكُمُ الرِّجْسَ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

بالْبُكَاءِ عَلَيْهِ وَدَهَشَ الْقَوْمَ كَيَوْمِ قُبُضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَجَاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بَاكِيًا مُسْرِعًا مُسْتَرْجِعًا حَتَّى وَقَفَ بِالْبَابِ وَهُوَ يَقُولُ: رَحِمَكَ اللَّهُ أَبَا بَكْرَ، كُنْتَ وَاللَّهِ أَوَّلَ الْقَوْمِ إِسْلَامًا، وَأَخْلَصَهُمْ إِيْمَانًا، وَأَشَدَّهُمْ يَقِينًا، وَأَعْظَمَهُمْ عَنَاءً، وَأَحْفَظَهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَحْرَبَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَأَحْنَاهُمْ عَلَى أَهْلِهِ، وَأَشْبَهُهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خُلُقًا وَفَضْلًا وَهَذْيًا وَسَمْتًا؛ فَجَزَاكَ اللَّهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَعَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، صَدَقْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ كَذَّبَهُ النَّاسُ، وَوَاسِيَّتَهُ حِينَ بَخِلُوا، وَقَمْتَ مَعَهُ حِينَ قَعَدُوا، سَمَّاكَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ صِدْقًا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصُّدُقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾^(١) يُرِيدُ مُحَمَّدًا وَيُرِيدُكَ. كُنْتَ وَاللَّهِ لِلْإِسْلَامِ حِصْنًا، وَعَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا، لَمْ تُفَلِّلْ حُجَّتَكَ، وَلَمْ تَضَعِفْ بَصِيرَتَكَ، وَلَمْ تَجْبُنْ نَفْسَكَ. كُنْتَ كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْعَوَاصِفُ وَلَا تُزِيلُهُ الْقَوَاصِفُ، كُنْتَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ضَعِيفًا فِي بَدَنِكَ، قَوِيًّا فِي أَمْرِ اللَّهِ، مُتَوَاضِعًا فِي نَفْسِكَ، عَظِيمًا عِنْدَ اللَّهِ، قَلِيلًا فِي الْأَرْضِ، كَثِيرًا عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عِنْدَكَ مَطْمَعٌ، وَلَا لِأَحَدٍ عِنْدَكَ هَوَادَةٌ، فَالْقَوِيُّ عِنْدَكَ ضَعِيفٌ حَتَّى تَأْخُذَ الْحَقُّ مِنْهُ، وَالضَّعِيفُ عِنْدَكَ قَوِيٌّ حَتَّى تَأْخُذَ الْحَقُّ لَهُ، فَلَا حَرَمْنَا اللَّهُ أَجْرَكَ، وَلَا أَضَلَّنَا بَعْدَكَ.

* * *

وَقَفَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ عَلَى قَبْرِ مَعَاوِيَةَ فَقَالَ: تَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ إِلَّا كَمَا عَلِمْتُ، يُنْطَقُكَ الْعِلْمُ، وَيُسَكِّتُكَ الْجِلْمُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

(١) الزمر: ٣٣ .

وما الدَّهر والأيام إلَّا كما ترى رَزِيَّةَ مالٍ أو فِرَاقُ حَسِيبٍ

* * *

الهيثم بن عدي قال : لما هَلَكَ زيادُ أَسْتَعْمَلَ مُعَاوِيَةَ الضَّحَّاكَ عَلَى الْكُوفَةِ ،
فلما دخلها ، سأل عن قبر زياد ، فذُلَّ عليه ، فَأَتَاهُ حَتَّى وَقَفَ بِهِ ، ثم قال :
أَبَا الْمُغِيرَةِ وَالدُّنْيَا مُفْجَعَةٌ وَإِنْ مِنْ غَرَّتِ الدُّنْيَا لَمَغْرُورٌ
قَدْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْمَغْرُوفِ مَعْرِفَةٌ وَكَانَ عِنْدَكَ لِلنُّكَرَاءِ تَنْكِيرٌ
لَوْ خَلَّدَ الْخَيْرُ وَالْإِسْلَامُ ذَا قَدَمٍ إِذَا لَخَلَّدَكَ الْإِسْلَامُ وَالْخَيْرُ
وَالْأَبْيَاتُ لِحَارِثَةِ بْنِ زَيْدٍ يَزِيْثِي زِيَادًا .

* * *

قال المدائني : لما دَفَنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فَاطِمَةُ
عليهما السلام تَمَثَّلَ عِنْدَ قَبْرِهَا ، فَقَالَ :
لِكُلِّ أَجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَةٌ وَكُلُّ الَّذِي دُونَ الْمَمَاتِ قَلِيلٌ
وَإِنْ أَفْتَقَادِي وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ دَلِيلٌ عَلَى أَنْ لَا يَدُومَ خَلِيلٌ

* * *

وَقَفَ أَبُو ذَرٍّ الْهَمْدَانِيُّ عَلَى قَبْرِ ابْنِهِ ذَرٍّ فَقَالَ : يَا ذَرُّ ، شَغَلَنِي الْحُزْنُ
لَكَ عَنِ الْحُزْنِ عَلَيْكَ ، فَلَيْتَ شِعْرِي مَا قُلْتَ وَمَا قِيلَ لَكَ . ثم قال : اللَّهُمَّ
إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ لَكَ إِسَاءَتَهُ إِلَيَّ ، فَهَبْ لَهُ إِسَاءَتَهُ إِلَيْكَ . فَلَمَّا انْصَرَفَ عَنْهُ
التَفَتَ إِلَى قَبْرِهِ فَقَالَ : يَا ذَرُّ ، قَدْ انْصَرَفْنَا وَتَرَكْنَاكَ ، وَلَوْ أَقْمَنَا مَا نَفَعْنَاكَ .

* * *

وَقَفْتُ أَعْرَابِيَّةً عَلَى قَبْرِ أَبِيهَا فَقَالَتْ: يَا أَبَتِ، إِنَّ فِي اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ فَقْدِكَ عَوَضًا، وَفِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مُصِيبَتِكَ أَسْوَةٌ، ثُمَّ قَالَتْ: اللَّهُمَّ، نَزِلْ بِكَ عَبْدُكَ مُقْفِرًا مِنَ الزَادِ، مُخْشَوِّشٍ الْمِهَادِ، غَنِيًّا عَمَّا فِي أَيْدِي الْعِبَادِ، فَقِيرًا إِلَى مَا فِي يَدَيْكَ يَا جَوَادَ، وَأَنْتَ، أَيُّ رَبِّ، خَيْرٌ مِنْ نَزْلِ بِهِ الْمُؤْمِلُونَ، وَاسْتَعْنَى بِفَضْلِهِ الْمَقْلُونَ، وَوَلَجَ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ الْمُذْنِبُونَ. اللَّهُمَّ فَلْيَكُنْ قَرَى عَبْدِكَ مِنْكَ رَحْمَتُكَ، وَمِهَادُهُ جَنَّتُكَ، ثُمَّ أَنْصَرَفَتْ.

* * *

تَوَفَّى رَجُلٌ كَانَ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ بِالذُّنُوبِ فَتَحَامَى النَّاسُ جِنَازَتَهُ، فَبَلَغَ عُمَرَ بْنَ ذَرٍّ خَبْرَهُ، فَأَوْصَى إِلَى أَهْلِهِ أَنْ خُذُوا فِي جِهَازِهِ فَإِذَا فَرَّغْتُمْ فَأَذْنُونِي، فَفَعَلُوا وَشَهِدَهُ عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ وَشَهِدَهُ النَّاسُ مَعَهُ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ دَفْنِهِ وَقَفَ عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ عَلَى قَبْرِهِ فَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ أَبَا فَلَانِ، فَلَقَدْ صَحِبْتَ عُمرَكَ بِالتَّوْحِيدِ، وَعَفَّرْتَ لِلَّهِ وَجْهَكَ بِالسُّجُودِ، فَإِنْ قَالُوا مُذْنِبٌ وَذُو خَطَايَا، فَمَنْ مِثْلَا غَيْرِ مُذْنِبٍ وَغَيْرِ ذِي خَطَايَا؟

* * *

قَالَ الْأَضْمَعِيُّ: دَخَلْتُ بَعْضَ مَقَابِرِ الْأَعْرَابِ وَمَعِيَ صَاحِبٌ لِي فَإِذَا جَارِيَةٌ عَلَى قَبْرِ كَأَنَّهَا تَمُثِّلُ وَعَلَيْهَا مِنَ الْحَلِيِّ وَالْحُلَلِ مَا لَمْ أَرَ مِثْلَهُ وَهِيَ تَبْكِي بِعَيْنٍ غَزِيرَةٍ وَصَوْتٍ شَجِيٍّ. فَالْتَفْتُ إِلَى صَاحِبِي. فَقُلْتُ: هَلْ رَأَيْتَ أَعْجَبَ مِنْ هَذِهِ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، وَلَا أَحْسَبُنِي أَرَاهُ. ثُمَّ قُلْتُ لَهَا: يَا هَذِهِ، إِنِّي أَرَاكَ حَزِينَةً وَمَا عَلَيْكَ زِيَّ الْحُزْنِ: فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ:

فَإِنْ تَسْأَلَانِي فِيمَ حُزْنِي فَإِنِّي رَهِينَةُ هَذَا الْقَبْرِ يَا فَتَيَانَ
وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِيهِ وَالتُّزْبَ بَيْنَنَا كَمَا كُنْتُ أَسْتَحْيِيهِ حِينَ يَرَانِي
أَهَابُكَ إِجْلَالاً وَإِنْ كُنْتُ فِي الثَّرَى مَخَافَةً يَوْمٍ أَنْ يَسُوكَ لِسَانِي

ثم اندفعت في البكاء وجعلت تقول:

يَا صَاحِبَ الْقَبْرِ يَا مَنْ كَانَ يَنْعَمُ بِي بِالْأَوْكُورِ فِي الدُّنْيَا مُوَاسَاتِي
قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ فِي حَلِي وَفِي حُلَلٍ كَأَنِّي لَسْتُ مِنْ أَهْلِ الْمُصِيبَاتِ
أَرَدْتُ أَتِيكَ فِيمَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ أَنْ قَدْ تُسَرُّ بِهِ مِنْ بَعْضِ هَيْئَاتِي
فَمَنْ رَأَانِي رَأَى عَبْرَى مُوَلَّهَةً عَجِيبَةً الزِّيَّ تَبْكِي بَيْنَ أَمْوَاتِ

* * *

وقال: رَأَيْتُ بِصَحْرَاءَ جَارِيَةً قَدْ أَلْصَقَتْ خَدَّهَا تَبْكِي بَيْنَ أَمْوَاتِ

وتقول:

خَذِي تَقِيكَ خُشُونَةَ اللَّحْدِ وَقَلِيلَةَ لَكَ سَيِّدِي خَذِي
يَا سَاكِنَ الْقَبْرِ الَّذِي بَوَفَاتِهِ عَمِثَ عَلَيَّ مَسَالِكُ الرُّشْدِ
اسْمَعِ أَبْتُكَ عَلَّتِي فَلَعَلَّنِي أَطْفِي بِذَلِكَ خُرْقَةَ الْوَجْدِ

* * *

الفصل الثالث: ما كُتب على القبور

تُوفِّي رَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ فُكِّتَبَ عَلَى قَبْرِهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ:

يَا وَاقِفِينَ أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُوا أَنَّ الْجَمَامَ بِكُمْ عَلَيْنَا قَادِمُ
لَوْ تَنْزِلُونَ بِشِعْبِنَا لَعَرَفْتُمْ أَنَّ الْمُفْرَطَ فِي التَّزْوُدِ نَادِمُ
لَا تَسْتَغِرُوا بِالْحَيَاةِ فَإِنَّكُمْ تَبْنُونَ وَالْمَوْتَ الْمُفَرَّقُ هَادِمُ
سَاوَى الرَّدَى مَا بَيْنَنَا فِي حُفْرَةٍ حَيْثُ الْمُخَدَّمُ وَاحِدٌ وَالْخَادِمُ

* * *

وَمِمَّا وُجِدَ عَلَى قَبْرِ:

إِنَّ الْحَبِيبَ مِنَ الْأَخْبَابِ مُخْتَلَسُ لَا يَمْنَعُ الْمَوْتَ بَوَابٌ وَلَا حَرَسُ
فَكَيْفَ تَفْرَحُ بِالدُّنْيَا وَلَذَّتْهَا يَا مَنْ يُعَدُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ وَالنَّفْسُ
لَا يَزَحُمُ الْمَوْتُ ذَا جَاهٍ لِعِزَّتِهِ وَلَا الَّذِي كَانَ مِنْهُ الْعِلْمُ يُقْتَبَسُ
قَدْ كَانَ قَصْرُكَ مَعْمُورًا لَهُ شَرَفُ فَقَبْرُكَ الْيَوْمَ فِي الْأَجْدَاثِ مُنْذَرِسُ

* * *

قَالَ ابْنُ الزُّقَاقِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ وَأَوْصَى أَنْ تُكْتَبَ عَلَى قَبْرِهِ:

إِخْوَانَنَا وَالْمَوْتُ قَدْ حَالَ دُونَنَا وَلِلْمَوْتِ حُكْمٌ نَافِذٌ فِي الْخَلَائِقِ

سَبَقْتُكُمْ لِلْمَوْتِ وَالْعُمُرُ طَيِّهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكُلَّ لَا بُدَّ لِأَحْقِي
بِعَيْشِكُمْ أَوْ بِاضْطِجَاعِي فِي الثَّرَى أَلَمْ نَكْ فِي صَفْوٍ مِنَ الْعَيْشِ رَائِقِ
فَمَنْ مَرَّ بِي فَلْيَمِضْ بِي مُتَرَحِّمًا وَلَا يَكْ مَنَسِيًّا وَفَاءُ الْأَصَادِقِ

* * *

أَمَرَ أَبُو الصَّلَتِ الْإِسْبِيلِيُّ أَنْ تُكْتَبَ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ عَلَى قَبْرِهِ:
سَكَنْتُكَ يَا دَارَ الْفَنَاءِ مُصَدِّقًا بِأَنِّي إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ أَصِيرُ
وَأَعْظَمُ مَا فِي الْأَمْرِ أَنِّي صَائِرُ إِلَى عَادِلٍ فِي الْحُكْمِ لَيْسَ يَجُورُ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ الْفَقَاءُ عِنْدَهَا وَزَادِي قَلِيلُ وَالذُّنُوبُ كَثِيرُ
فَإِنْ أَكْ مَجْزِيًّا بِذَنْبِي فَإِنِّي بِشَرِّ عِقَابِ الْمُذْنِبِينَ جَدِيرُ
وَإِنْ يَكْ عَفْوٌ ثُمَّ عَنِّي وَرَحْمَةٌ فَتَمَّ نَعِيمٌ زَائِدٌ وَسُرُورُ

* * *

حُفِرَتْ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ عَلَى قَبْرِ ابْنِ بَاقٍ وَهِيَ مِنْ تَضْيِيفِهِ:
تَرَحَّمْ عَلَى قَبْرِ ابْنِ بَاقٍ وَحْيِهِ فَمِنْ حَقِّ مَيِّتِ الْحَيِّ تَسْلِيمُ حَيِّهِ
وَقُلْ أَمَّنَ الرَّحْمَانُ رَوْعَةً خَائِفِ لِتَفْرِيطِهِ فِي الْوَاجِبَاتِ وَغْيِهِ
وَإِنِّي بِفَضْلِ اللَّهِ أَوْثَقُ وَاثِقِ وَحَسْبِي وَإِنْ أَذْنَبْتُ حَسْبُ صَفِيهِ

* * *

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَقْرِيُّ الْخَيَّاطُ عَلَى لِسَانِ مَيِّتٍ:
أَيُّهَا الزَّائِرُونَ بَعْدَ وَفَاتِي جَدُّنَا ضَمَّنِي وَلِخَدَا عَمِيقَا
سَتَرُونَ الَّذِي رَأَيْتُ مِنَ الْمَوْتِ بِ عِيَانَا وَتَسْلُكُونَ طَرِيقَا

نَظَمَ أَسْعَدُ مُضْطَفَى اللَّقِيمِي قَبْلَ مَوْتِهِ تَارِيخًا لِقَبْرِهِ:
 قَبْرٌ بِهِ مَنْ أَوْثَقَتْهُ ذُنُوبُهُ وَغَدَا لِسُوءِ فِعَالِهِ مُتَخَوِّفًا
 قَدْ ضَاعَ مِنْهُ عُمُرُهُ بِبَطَالَةٍ وَالْعَيْشُ مِنْهُ بِالتَّكْدِيرِ مَا صَفَا
 مَاذَا طَوَى قَبْرُ اللَّقِيمِي أَرْخُوا مُسْتَمْنَحٌ لِلْعَفْوِ أَسْعَدُ مُضْطَفَى

* * *

لَمَّا قُتِلَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزْنَ الْجَمِيرِيُّ دُفِنَ فِي صَنْعَاءَ بِمَقْبَرَةٍ وَوُضِعَ فِي
 سَرِيرِهِ عِنْدَ رَأْسِهِ لَوْحٌ قَدْ كُتِبَتْ فِيهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ:

أَنَا ابْنُ ذِي يَزْنَ مِنْ فَرْعِ ذِي يَمَنِ مَلَكَتْ مِنْ حَدِّ صَنْعَاءَ إِلَى عَدَنِ
 جَلَبْتُ مِنْ فَارِسٍ جَيْشًا عَلَى عَجَلٍ فِي الْبَحْرِ أَحْمِلُهُمْ فِيهِ عَلَى السُّفُنِ
 حَتَّى غَزَوْتُ بِهِمْ قَوْمًا مُهَاجِرَةً فِي الْبَرِّ جَاسُوا خِلَالَ الْحَيِّ مِنْ يَمَنِ
 بِالْخَسْفِ وَالذُّلِّ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ ذُوقُوا ثِمَارَ ذَوَاتِ الْحَقْدِ وَالْإِحْنِ
 فَأَوْقَعُوا بِهِمْ وَالْدَّهْرُ ذُو دَوْلٍ حَتَّى كَأَنَّ مَغَارَ الْقَوْمِ لَمْ يَكُنِ
 حَتَّى إِذَا ظَفِرَتْ نَفْسِي بِمَا طَلَبْتُ وَزَالَ مَا كَانَ فِي قَلْبِي مِنَ الْحَزَنِ
 وَنَلْتُ أَكْثَرَ مِمَّا كُنْتُ أَمْلُهُ مِنْ قَتْلِي الْحُبْشَ حَتَّى طَابَ لِي وَطَنِي
 جَاءَ الْقَضَاءُ بِمَا لَا يُسْتَطَاعُ لَهُ دَفْعٌ وَلَا يُشْتَرَى يَا قَوْمُ بِالثَّمَنِ
 مِنْ بَعْدِ مَا جُبْتُ أَمْوَالًا مُصْرَمَةً قَطَرَ الْبِلَادِ فَلَمْ أَعْجِزْ وَلَمْ أَهْنِ
 قَدْ صِرْتُ مُرْتَهَنًا فِي قَاعِ مُظْلِمَةٍ لِلَّهِ دَرِي مِنْ ثَاوٍ وَمُرْتَهَنِ

* * *

كَانَ عَلَى قَبْرِ يَعْقُوبَ بْنِ لَيْثٍ مَكْتُوبَ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ عَمَلَهَا قَبْلَ مَوْتِهِ،

وأمر أن تُكتب على قبره، وهي هذه:

سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ الدَّوَارِسِ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَجْلِسُوا فِي الْمَجَالِسِ
وَلَمْ يَشْرَبُوا مِنْ بَارِدِ الْمَاءِ شَرِبَةً وَلَمْ يَأْكُلُوا مَا بَيْنَ رَطْبٍ وَيَابِسِ
فَقَدْ جَاءَنِي الْمَوْتُ الْمَهُولُ بِسَكْرَةٍ فَلَمْ تُنَجِّنِي مِنْهُ أُلُوفُ الْفَوَارِسِ
فَيَا زَائِرَ الْقَبْرِ اتَّعِظْ وَاعْتَبِرْ بِنَا وَلَا تَكُ فِي الدُّنْيَا هُدَيْتَ بِأَنْسِ

* * *

لما حضرت أبا العتاهية الوفاة أوصى بأن يُكتب على قبره هذه

الآيات الأربعة:

أُذِنَ حَيٌّ تَسْمَعِي أَسْمَعِي ثُمَّ عِي وَعِي
أَنَا زَهْنٌ بِمَضْجَعِي فَاحْذِرِي مِثْلَ مَضْرَعِي
عِشْتُ تَشْعِينَ حِجَّةً ثُمَّ وَافَيْتُ مَضْجَعِي
لَيْسَ شَيْءٌ سِوَى الثَّقَى فَخُذِي مِنْهُ أَوْ دَعِي

وعارضة بعض الشعراء في هذه الآيات، وأوصى بأن تُكتب على

قبره أيضًا فكتبت، وهي:

أَصْبَحَ الْقَبْرُ مَضْجَعِي وَمَحَلِّي وَمَوْضِعِي
صَرَغْتَنِي الْخُتُوفُ فِي الْـ تُرَبِّ يَا ذُلَّ مَضْرَعِي
أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِي نَ إِلَيْهِمْ تَطْلُعِي
مُتَّ وَخِدي فَلَمْ يَمُتْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَعِي

* * *

وُجِدَ على قَبْرِ جاريةٍ إلى جَنْبِ قَبْرِ أَبِي نُوَّاسٍ ثَلَاثَةُ أَبْيَاتٍ ، فَقِيلَ إِنَّهَا
من قول أَبِي نُوَّاسٍ ، وَهِيَ :

أَقُولُ لِقَبْرِ زُرَّتِهِ مُتَلَثِّمًا^(١) سَقَى اللَّهُ بَرْدَ الْعَفْوِ صَاحِبَةَ الْقَبْرِ
لَقَدْ غَيَّبُوا تَحْتَ الثَّرَى قَمَرَ الدُّجَى وَشَمَسَ الضُّحَى بَيْنَ الصَّفَائِحِ وَالْعَفْرِ^(٢)
عَجِبْتُ لَعَيْنٍ بَعْدَهَا مَلَتْ الْبُكَاءُ وَقَلْبٍ عَلَيْهَا يَرْتَجِي رَاحَةَ الصَّبْرِ

* * *

قال الرِّياشي : وَجَدْتُ تَحْتَ الْفِرَاشِ الَّذِي مَاتَ عَلَيْهِ أَبُو نُوَّاسٍ رُقْعَةً
مَكْتُوبٌ فِيهَا هَذِهِ الْأَبْيَاتُ :

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُخْسِنٌ فِيمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ
أَدْعُوكَ رَبُّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا فَإِذَا رَدَدْتَ يَدَيَّ فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفْوَكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمٌ

* * *

قال الخُشَنِّي : أَخْبَرَنَا بَعْضُ أَصْحَابِنَا مِمَّنْ كَانَ يَغْشَى مَجْلِسَ
الرِّياشي ، قَالَ : رَأَيْتُ عَلَى قَبْرِ أَبِي هَاشِمِ الْإِيَادِيِّ بِوَاسِطَ :

الْمَوْتُ أَخْرَجَنِي مِنْ دَارِ مَمْلَكَتِي وَالْمَوْتُ أَضْرَعَنِي مِنْ بَعْدِ تَشْرِيفِي
لِلَّهِ عَبْدٌ رَأَى قَبْرِي فَأَغْبَرَهُ وَخَافَ مِنْ دَهْرِهِ رَبِّبَ التَّصَارِيفِ

* * *

(١) متلثمًا: أي باغيًا لثمه.

(٢) العفر: التراب.

قال الأصمعيّ: أخذ بيدي يحيى بن خالد بن برمك فوقفني على قبره
بالحيرة فإذا عليه مكتوب:

إِنَّ بَنِي الْمُنْذِرِ لَمَّا أَنْقَضُوا بَحِيثُ شَادِ الْبَيْعَةِ الرَّاهِبُ
تَنْفَحُ بِالْمِسْكِ مَحَارِبُهُمْ وَعَنْبِرٍ يَقْطِبُهُ^(١) قَاطِبُ
وَالْخُبْزِ وَاللَّحْمِ لَهُمْ رَاهِنُ وَقَهْوَةِ رَاوُوقِهَا^(٢) سَاكِبُ
وَالْقُطْنِ وَالْكَتَانِ أَثْوَابُهُمْ لَمْ يَجْلِبِ الصُّوفَ لَهُمْ جَالِبُ
فَأَضْبَحُوا قُوتًا لِدُودِ الثَّرَى وَالذَّهْرُ لَا يَبْقَى لَهُ صَاحِبُ
كَأَنَّمَا حَيَاتُهُمْ لُغْبَةٌ سَرَى إِلَى بَيْنِ^(٣) بِهَا رَاكِبُ

* * *

قال الشَّيْبَانِيُّ: وَجَدَ مَكْتُوبًا عَلَى بَعْضِ الْقُبُورِ:

مَلَّ الْأَجْبَةُ زَوْرَتِي فَجُفَيْتُ وَسَكَنْتُ فِي دَارِ الْبَلَى قُنْسِيْتُ
الْحَيُّ يَكْذِبُ لَا صَدِيقَ لِمَيِّتٍ لَوْ كَانَ يَصْدُقُ مَاتَ حِينَ يَمُوتُ
يَا مُؤْنِسًا سَكَنَ الثَّرَى وَبَقِيْتُ لَوْ كُنْتُ أَصْدُقُ إِذْ بَلَيْتَ بَلَيْتُ
أَوْ كَانَ يَغْمَى لِلْبُكَاءِ مُفْجَعٌ مِنْ طُولِ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ عَمِيْتُ

* * *

(١) يقطبه: يمزجه.

(٢) الراووق: الإناء الذي يُصَفَّى به الشراب.

(٣) بين: موضع في الحيرة.

الباب السادس

في الرثاء

الفصل الأول: في رثاء الذات

قال مالك بن الرئب يرثي نفسه ويصف قبره، وكان خرج مع سعيد ابن عثمان بن عفان لما ولي خراسان، فلما كان ببعض الطريق أراد أن يلبس حقه، فإذا بأفعى في داخلها فلسعته، فلما أحس الموت استلقى على قفاه، ثم أنشأ يقول:

دعاني الهوى من أهل أود وصحبتني	بذي الطيسين فالتفت ورائيا ^(١)
فما راعني إلا سوابق عبرة	تقنعت منها أن ألام ردائيا ^(٢)
ألم ترني بغت الضلالة بالهدى	وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا
فلله دري حين أترك طائعا	بنني بأعلى الرقمتين وماليا
ودر كبيرى اللذين كلاهما	علي شفيق ناصح لو نهانيا
ودر الأطباء السانحات عشيّة	يخبرون أنني هالك من أماميا
تقول أبتني لما رأيت وشك رخلتي	سفارك هذا تاركى لا أبا ليا
ألا ليت شغري هل بكث أم مالك	كما كنت لو عالوا نعيك باكيا ^(٣)
على جدت قد جرّت الرّيح فوقه	تربا كسحق المرنباني هابيا ^(٤)
فيا صاحبي رخلي دنا الموت فاحفرا	برابية إنني مقيم لياليا

(١) أود وذو الطيسين: موضعان. (٢) أي تقنعت ردائي لكيلا يروني الناس باكيا فيلوموني.

(٣) عالوا: هنا بمعنى نشروا وأعلنوا. (٤) المرنباني: كساء من خز. هابيا: منتشرًا.

وخطا بأطراف الأسيئة مضجعي
ولا تحسداني بآرك الله فيكما
خذاني فجرائني بيزدي إليكما
تفقدت من يبكي علي فلم أجذ
وأذهم غريب^(١) يجر لجامه
وبالرمي لو يعلم علمي نسوة
عجوزي وأختاي اللتان أصيبتا
لعمري لئن غالت خراسان همتي
تحمل أصحابي عشاء وغادروا
يقولون لا تبعد وهم يذفئونني
وردا على عيني فضل ردائي
من الأرض ذات العرض أن توسعاليا
وقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
سوى السيف والرمح الرديني باكيا
إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا
بكين وفدين الطبيب المداويا
يموتي وبنت لي تهيج البواكيا
لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
أخا ثقة في عرصة الدار ثاويا
وأين مكان البغد إلا مكانيا

* * *

وقال رجل من بني تغلب يقال له أفئون، وهو لقبه، واسمه صريم بن
مغش بن ذهل بن تيم، ولقي كاهنا في الجاهلية، فقال له: إنك تموت
بمكان يقال له إلهة. فمكث ما شاء الله، ثم سافر في ركب من قومه إلى
الشام فأتوها، ثم انصرفوا فضلوا الطريق، فقالوا لرجل: كيف نأخذ؟ فقال:
سيروا حتى إذا كنتم بمكان كذا وكذا ظهر لكم الطريق ورأيت إلهة -
والإلهة قارة بالسماء - فلما أتوها نزل أصحابه وأبى أن ينزل، فبينما ناقته
ترتعي وهو راكبها إذ أخذت بمشفر ناقته حية، فاحتكت الناقة بمشفرها
فلدغت ساقه؛ فقال لأخيه وكان معه، وأسمه معاوية: احفر لي فإني ميت،
ثم تغنى قبل أن يموت يبكي نفسه:

(١) غريب: شديد السواد.

فلستُ على شيءٍ فُروحنُ معاويا ولا المُشَفِّقاتُ إذ تَبَعْنَ الحَوَازِيا^(١)
ولا خَيْرَ فيما يَكْذِبُ المرءُ نفسَه وتَقْوَاله للشيءِ يا ليت ذا ليا
وإن أعجبتك الدهرَ حالٌ من أمرئ فدَعِه ووَإِكلُ حاله واللياليا
يُرُحْن عليه أو يُغَيِّرُن ما به وإن لم يَكُنْ في جوفه العيش وانيا
قطاً مُعْرِضاً إنَّ الحُتُوفَ كثيرةٌ وإنَّك لا تَبْقَى بِنَفْسِكَ باقيا^(٢)
لَعَمْرُكَ ما يَذْري أمرؤ كيف يَتَّقِي إذا هو لم يَجْعَلْ له الله واقيا
كفى حَزْناً أن يَزْحل الرُّكْب غُدُوَّة وأنزِلَ في أَعْلَى إلهة ثاويا
ويروى أنه مات، فدَقَّتْهُ بها.

* * *

وقال هُذْبَةُ العُذْرِي لما أَيْقَنَ بالموت:

أَلَا عَلَّلَانِي قَبْلَ نَوْحِ النَوَائِحِ وَقَبْلَ أَطْلَاعِ النَّفْسِ بَيْنَ الْجَوَائِحِ
وَقَبْلَ غَدٍ يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى غَدٍ إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرَائِحِ
إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي بِفَيْضِ دُمُوعِهِمْ وَغُودِرْتُ فِي لَحْدٍ عَلَيَّ صَفَائِحِي
يَقُولُونَ هَلْ أَضْلَخْتُمْ لِأَخِيكُمْ وَمَا الرَّمْسُ فِي الْأَرْضِ الْقَوَاءُ بِصَالِحِ

* * *

وقال محمد بن بَشِير:

وَيْلٌ لِمَنْ لَمْ يَرْحَمْ اللهُ وَمَنْ تَكُونُ النَّارُ مَثْوَاهُ

(١) فلست على شيء أي لست أقدر على شيء. فروحن: اتركني. والمشفقات: ذوات الشفقة. والحوزي: الكواهن. أي لا أقدر أن أدفع عن نفسي شيئاً كتب علي، وكذا النساء المشفقات إذ تبعن الكواهن يسألنهن لا يغنين عمن أشفقن عليه شيئاً.

(٢) طأ: فعل الأمر من وطىء بمعنى داس. الحتوف: جمع الحتف، وهو الموت.

وَالْوَيْلَ لِي مِنْ كُلِّ يَوْمٍ أَتَى
كَأَنَّهُ قَدْ قِيلَ فِي مَجْلَسٍ
قَدْ كُنْتُ أَتِيهِ وَأَغْشَاهُ:
صَارَ الْبَشِيرِيُّ إِلَى رَبِّهِ
يَرْحَمُنَا اللَّهُ وَإِيَّاهُ

* * *

الفصل الثاني: في رثاء الولد

قال ابن عبد ربه في رثاء ولده:

بليت عظامك والأسى يتجدد والصبر ينقد والبكا لا ينقد
يا غائبًا لا يرتجى لإيابه ولقائه دون القيامة موعدا
ما كان أحسن ملحدًا ضمته لو كان ضم أباك ذاك الملحد
باليأس أسلو عنك لا بتجلدي هيات أين من الحزين تجلدا

* * *

وقال فيه أيضًا:

واكبدا قد قطعت كيدي وأكبدا قد قطعت كيدي
ما مات حي لميت أسفا ما مات حي لميت أسفا
يا رحمة الله جاوري جدنا يا رحمة الله جاوري جدنا
ونوري ظلمة القبور على ونوري ظلمة القبور على
من كان خلوا من كل باقة من كان خلوا من كل باقة
يا موت، يحيى لقد ذهبت به يا موت، يحيى لقد ذهبت به
يا مؤته لو أقلت عشرته يا مؤته لو أقلت عشرته

(١) الزميل: الجبان الضعيف.

يا موث لو لم تَكُن تُعاجله
أو كنتَ راحيتَ في العِنان له
أَيَّ حُسام سَلِبتَ رَوْثَقَهُ
وَأَيَّ ساقٍ قَطَعْتَ من قَدَمِ
يا قَمَرًا أَجْحَفَ الخُسوف به
أَيَّ حَشًا لم تَذُبْ له أَسْفًا
لا صَبْرَ لي بَعْدَه ولا جَلْدَ
لو لم أَمُتْ عند مَوْتِه كَمَدًا
يا لَوْعَةً ما يَزال لاعِجُها
وقال فيه أيضًا:

لا بَيْتَ يُسْكَنُ إِلَّا فارقَ السَّكَنَا
لَهْفِي على مَيِّتٍ مات السُّرور به
واها عليك أبا بَكْرٍ مُرَدِّدَةٌ
إِذا ذَكَرْتُكَ يومًا قُلْتُ وا حَزَنًا
يا سَيِّدي وَمَراحَ الرُّوحِ في جَسَدِي
حتى يعود بنا في قَعَرٍ مُظْلَمَةٍ
يا أَطيبَ الناسِ رُوحًا ضَمَّه بَدَنُ
لو كُنْتُ أُعْطِيَ به الدُّنيا مُعاوِضَةً
ولا أَمْتًا فَرَحًا إِلَّا أَمْتًا حَزَنًا
لو كانَ حَيًّا لأخِيَّ الدينَ والسُّنْنا
لو سَكَنْتُ وَلَها أَوْ فَتَّرتُ شَجَنًا
وما يَرُدُّ عَلَيَّ القَوْلُ: وا حَزَنًا
هَلَّا دَنَا المَوْتُ مِنِّي حينَ مِثْكَ دَنَا
لَحْدٍ وَيُلْبَسُنَا في واحِدٍ كَفَنًا
أَسْتَوْدِعُ اللهَ ذاكَ الرُّوحَ والبَدَنَا
منه لما كانت الدُّنيا له ثَمَنًا

(١) بيضة البلد: السيد.

(٢) الأمد: الغاية.

(٣) السواء: يريد ليلة أربع عشرة، أي أنه لم يكتمل.

وقال أبو ذؤيب الهذلي، وكان له أولاد سبعة فماتوا كلهم إلا طفلاً، فقال يرثيهم:

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهِ نَتَوَجَّعُ وَالذَّهْرَ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مِنْ يَجْزَعُ
قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لَجِسْمِكَ شَاحِبًا مِنْذِ ابْتَدَأْتَ وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ
أَمْ مَا لَجِسْمِكَ لَا يُلَائِمُ مَضْجَعًا إِلَّا أَقْضَى عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ
فَأَجَبْتُهَا أَنْ مَا لَجِسْمِي إِنَّهُ أَوْدَى بَنِيَّ مِنَ الْبِلَادِ فَوَدَّعُوا
أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةٍ مَا تُقْلِعُ
سَبَقُوا هَوًى وَأَعْنَقُوا لَهْوَاهُمْ فَتُخَرِّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعُ^(١)
فَبَقِيَتْ بَعْدَهُمْ بَعِيشٌ نَاصِبٍ وَإِخَالٌ أَنِّي لَأَحَقُّ مُسْتَتَبِعُ^(٢)
وَلَقَدْ حَرَضْتُ بَأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمْ وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ^(٣)
فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمْ كَأَنَّ حِدَاقَهَا سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فَهِيَ غَوْرٌ تَذْمَعُ^(٤)
حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ بِصَفَا الْمَشْرِقِ كُلِّ يَوْمٍ تُقْرَعُ^(٥)
وَتَجْلُدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ أَنِّي لِرَيْبِ الذَّهْرِ لَا أَتَضَغُّضَعُ

وقال في الطفل الذي بقي له:

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وقال الأصمعي: هذا أبدع بيت قالته العرب.

(١) هَوًى: هواي، وهذا لغة. أعنقوا: تبع بعضهم بعضاً. تُخَرِّمُوا: أُخِذُوا واحداً واحداً.

(٢) ناصب: فيه نصب، أي تعب.

(٣) التميمية: ما يعلق على الصدر لدفع الأذية.

(٤) حداقها: حدقتها.

(٥) المروة: الصخرة. وصفا المشرق: اسم موضع. يقول: كأنما أنا مروة في السوق تقرعها أقدام الناس.

وقال أعرابيٌّ يَرثِي بَنِيهِ :

أُسْكَنْ بَطْنَ الْأَرْضِ لَوْ يُقْبَلُ الْفِدَا
فَيَا لَيْتَ مَنْ فِيهَا عَلَيْهَا وَلَيْتَ مَنْ
وَقَاسَمَنِي دَهْرِي بَنِيَّ بِشَطْرِهِ
فَصَارُوا دُيُونًا لِلْمَنَايَا وَلَمْ يَكُنْ
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفِ الْمَوْتُ غَيْرَهُمْ
وَقَدْ كُنْتُ حَيًّا الْخَوْفِ قَبْلَ وَفَاتِهِمْ
فَلِلَّهِ مَا أُعْطِيَ وَلِلَّهِ مَا حَوَى
فَدَيْنَا وَأَعْطَيْنَا بِكُمْ سَاكِنِي الظُّهْرِ
عَلَيْهَا ثَوَى فِيهَا مُقِيمًا إِلَى الْحَشْرِ
فَلَمَّا تَقَصَّى شَطْرُهُ مَالَ فِي شَطْرِي^(١)
عَلَيْهِمْ لَهَا دَيْنٌ قَضَوُهُ عَلَى عُشْرِ
فَتُكَلُّ عَلَى تُكَلِّ وَقَبْرٌ إِلَى قَبْرِ
فَلَمَّا تَوَفَّوْا مَاتَ خَوْفِي مِنَ الدَّهْرِ
وَلَيْسَ لِأَيَّامِ الرِّزْيَةِ كَالصَّبْرِ

* * *

وقيل لأعرابية مات ابنُها: ما أحسنَ عزاءك؟ قالت: إِنَّ فَقْدِي إِيَّاهُ
آمَنَنِي كُلَّ فَقْدٍ سِوَاهُ، وَإِنْ مُصِيبَتِي بِهِ هَوْنَتْ عَلَيَّ الْمَصَائِبُ بَعْدَهُ. ثُمَّ
أَنْشَأَتْ تَقُولُ:

مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلْيَمُتْ
كُنْتُ السَّوَادَ لِنَاطِرِي
لَيْتَ الْمَنَازِلَ وَالْدُّيَا
إِنِّي وَغَيْرِي لَا مَحَا
فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَاذِرُ
فَبَكَى عَلَيْكَ النَّاطِرُ
رَ حَفَائِرُ وَمَقَابِرُ
لَهُ حَيْثُ صِرْتُ لَصَائِرُ

أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ هَانئٍ مَعْنَى هَذَا الْبَيْتِ الْأَوَّلِ، فَقَالَ فِي الْأَمِينِ:

طَوَى الْمَوْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ
وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَخْذَرُ الْمَوْتِ وَحْدَهُ
لَشَنْ عَمَرْتُ دُورًا بِمَنْ لَا أَحِبُّهُ
لَقَدْ عَمَرْتُ مَمَّنْ أَحَبَّ الْمَقَابِرُ

(١) المعنى أَنَّهُ أَهْلَكَ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ أَوْلَادِي.

وقال عبد الله بن الأَهم يَزْثِي أَبْنَا لَهُ :

دَعَوْتُكَ يَا بُنَيَّ فَلَمْ تَجِبْنِي فَرُدَّتْ دَعْوَتِي يَا سَا عَلَيَّ
بِمَوْتِكَ مَاتَت اللَّذَاتُ مِنِّي وَكَانَتْ حَيَّةً مَا دُمْتُ حَيًّا
فِيمَا أَسَفًا عَلَيْكَ وَطُولَ شَوْقِي إِلَيْكَ لَوْ أَنَّ ذَلِكَ رَدَّ شَيْئًا

* * *

وَأَصِيبُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ بَابِنَ لَهُ ، فَلَمَّا دَفَنَهُ وَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ وَقَالَ :

كَفَى حَزْنًا بَدَفْنَكَ ثُمَّ أَنِّي نَفَضْتُ تُرَابَ قَبْرِكَ مِنْ يَدَيَّ
وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتُ فَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

* * *

وَمَاتَ ابْنُ لِأَعْرَابِيٍّ فَاشْتَدَّ حُزْنُهُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ الْأَعْرَابِيُّ يُكْتَى بِهِ ، فَقِيلَ
لَهُ : لَوْ صَبَرْتَ لَكَانَ أَعْظَمَ لَثَوَابِكَ ؛ فَقَالَ :

بِأَبِي وَأُمِّي مِنْ عَبَّاتٍ حَنُوطِهِ بِيَدِي وَفَارَقْنِي بِمَاءِ شَبَابِهِ
كَيْفَ السُّلُوكُ وَكَيْفَ أَنْسَى ذِكْرَهُ وَإِذَا دُعِيتُ فَإِنَّمَا أُدْعَى بِهِ

* * *

خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا إِلَى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ^(١) ، فَإِذَا
أَعْرَابِيٌّ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : يَا أَعْرَابِيٌّ ، مَا أَذْخَلَكَ دَارَ الْحَقِّ ؟ قَالَ : وَدِيعَةٌ لِي
هَاهُنَا مِنْذُ ثَلَاثِ سِنِينَ ؛ قَالَ : وَمَا وَدِيعَتُكَ ؟ قَالَ : ابْنٌ لِي حِينَ تَرَعَّرَعَ فَقَدْتُهُ
فَأَنَا أَنْدُبُهُ ؛ قَالَ عُمَرُ : أَشْمِعْنِي مَا قَلْتَ فِيهِ ؛ فَقَالَ :

يَا غَائِبًا مَا يُوُوبُ مِنْ سَفَرِهِ عَاجِلُهُ مَوْتُهُ عَلَى صِغَرِهِ
يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ كُنْتُ لِي سَكَنًا فِي طُولِ لَيْلِي نَعْمَ وَفِي قِصَرِهِ

(١) بَقِيعُ الْغَرْقَدِ : مَقْبَرَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ .

شَرِبْتَ كَأْسًا أَبُوكَ شَارِبُهَا لَا بُدَّ يَوْمًا لَهُ عَلَى كِبَرِهِ
أَشْرَبُهَا وَالْأَنَامُ كُلُّهُمْ مَنْ كَانَ فِي بَذْوِهِ وَفِي حَضْرِهِ
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمَوْتُ فِي حُكْمِهِ وَفِي قَدَرِهِ
قَدْ قَسَمَ الْمَوْتُ فِي الْأَنَامِ فَمَا يَقْدِرُ خَلْقٌ يَزِيدُ فِي عُمَرِهِ
قال عمر: صدقت يا أعرابي، غير أن الله خير لك منه.

* * *

وقالت أعرابية تَنْدُبُ أَبًا لَهَا:
أَبْنِي غَيْبُكَ الْمَحَلُّ الْمُلْحَدُ إِمَّا بَعُدْتَ فَأَيْنَ مِنْ لَا يَبْعُدُ
أَنْتَ الَّذِي فِي كُلِّ مُنْصَى لَيْلَةٍ تَبْلَى وَحُزْنُكَ فِي الْحَشَى يَتَجَدَّدُ
وقالت فيه:

لئن كنتَ لَهْوًا لِلْعِيُونِ وَقُوَّةً لَقَدْ صِرْتَ سُقْمًا لِلْقُلُوبِ الصَّحَائِحِ
وَهَوْنٌ حُزْنِي أَنْ يَوْمَكَ مُدْرِكِي وَأَنْتِ غَدًا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الضَّرَائِحِ

* * *

وقال أبو الخطار يَرْثِي ابْنَهُ الْخَطَارَ:
أَلَا خَبَّرَانِي بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا مَتَى الْعَهْدُ بِالْخَطَارِ يَا فَتَيَانِ
فَتَى لَا يَرَى نَوْمَ الْعِشَاءِ غَنِيمَةً وَلَا يَنْثَنِي مِنْ صَوْلَةِ الْحَدَثَانِ

* * *

وقال أبو الشَّغْبِ يَرْثِي أَبْنَهُ شَغْبًا:
قَدْ كَانَ شَغْبٌ لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَمَّرَهُ عِزًّا تُزَادُ بِهِ فِي عِزِّهَا مُضَرُّ
لَيْتَ الْجِبَالَ تَدَاعَتْ قَبْلَ مَضْرَعِهِ دَكًّا فَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَحْجَارِهَا حَجَرٌ

فَارَقْتُ شَغَبًا وَقَدْ قُوِّسْتُ مِنْ كِبَرِ بَشِ الْخَلِيطَانِ طَوْلُ الْحُزْنِ وَالْكِبَرِ

* * *

قال الأصمعي عن رجل من الأعراب: كُنَّا عَشْرَةَ إِخْوَةٍ، وَكَانَ لَنَا أَخٌ يُقَالُ لَهُ حَسَنٌ، فَتُعِي إِلَى أَبِينَا، فَبَقِيَ سَتَتَيْنِ يَتَكِي عَلَيْهِ حَتَّى كَفَّ بَصَرُهُ، وَقَالَ فِيهِ:

أَفْلَحْتُ إِنْ كَانَ لَمْ يَمُتْ حَسَنُ وَكُفَّ عَنِّي الْبُكَاءُ وَالْحَزَنُ
بَلْ أَكْذَبَ اللَّهُ مَنْ نَعَى حَسَنًا لَيْسَ لَتَكْذِيبِ قَوْلِهِ ثَمَنُ
أَجُولُ فِي الدَّارِ لَا أَرَاكَ فِي الدَّارِ أَنْاسُ جِوَارِهِمْ غَبَنُ
بُدِّلْتُهُمْ مِنْكَ لَيْتَ أَنَّهُمْ كَانُوا وَبَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مُدُنُ
قَدْ عَلِمُوا عِنْدَمَا أَنْفَرَهُمْ مَا فِي قَنَاتِي صَدْعٌ وَلَا أُبْنُ
قَدْ جَرَّبُونِي فَمَا الْأَوْمُهُمْ مَا زَالَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ إِحْنُ
قَدْ بُرِيَ الْجِسْمُ مَذْنُوعٌ لَنَا كَمَا بَرَى فَرْعٌ نَبْعَةً سَفْنُ^(١)
فَإِنْ نَعِشْ فَالْمُنَى حَيَاتُكَ وَالْـ خُلْدُ وَأَنْتَ الْحَدِيثُ وَالْوَسْنُ
إِنْ تَخِي تَخِي بِخَيْرِ عَيْشٍ وَإِنْ تَمُضْ فِتْلِكَ السَّبِيلُ وَالسَّنَنُ
بَرِيدُكَ الْحَمْدُ وَالسَّلَامُ مَعَا فَكُلَّ حَيٍّ بِالمَوْتِ مُرْتَهَنُ
يَا وَيْحَ نَفْسِي أَنْ كُنْتُ فِي جَدَثٍ دُونَكَ فِيهِ التَّرَابُ وَالْكَفَنُ
عَلَيَّ اللَّهُ إِنْ لَقِيتُكَ مِنْ قَبْلِ المَمَاتِ الصَّيَامُ وَالْبُدْنُ
أَسْوَقُهَا حَافِيًا مُجَلَّلَةً أَذْمًا هِجَانًا قَدْ كَظَّهَا السَّمَنُ
فَلَا تُبَالِي إِذَا بَقِيتَ لَنَا مَنْ مَاتَ أَوْ مَنْ أَوْدَى بِهِ الزَّمَنُ

(١) السفن: ما ينحت به الشيء كالقدوم ونحوه.

كُنْتُ خَلِيلِي وَكُنْتُ خَالِصَتِي لِكُلِّ حَيٍّ مِنْ أَهْلِهِ سَكَنُ
لَا خَيْرَ لِي فِي الْحَيَاةِ بَعْدَكَ إِذْ أَصْبَحْتَ تَحْتَ التُّرَابِ يَا حَسَنُ

* * *

وقال أعرابي يرثي ابنه :

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والأسى أجابَ الأسى طَوْعًا وَلَمْ يُجِبِ الصَّبْرُ
فإنَّ يَنْقُطِعَ مِنْكَ الرَّجَاءُ فَإِنَّهُ سَيَبْقَى عَلَيْكَ الْحُزْنُ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ

* * *

وقال أعرابي يرثي ابنه :

بُنِيَ لَنِّي ضَنْتٌ جُفُونٌ بِمَائِهَا لَقَدْ قَرِحَتْ مِنِّي عَلَيْكَ جُفُونُ
دَفَنْتُ بِكَفِّي بَعْضَ نَفْسِي فَأَصْبَحْتُ وَلِلنَّفْسِ مِنْهَا دَافِنٌ وَدَفِينُ

* * *

وقال عبدُ الله بن ثعلبة يرثي ولدًا له :

أَخْضَبَ رَأْسِي أَمْ أَطْيَبَ مَفْرِقِي وَرَأْسُكَ مَزْمُوسٌ وَأَنْتَ سَلِيبُ
نَسِيبُكَ مِنْ أَمْسَى يُنَاجِيكَ طَرْفُهُ وَلَيْسَ لِمَنْ تَحْتَ التُّرَابِ نَسِيبُ
غَرِيبٌ وَأَطْرَافُ الْبُيُوتِ تُكِنُّهُ أَلَّا كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ غَرِيبُ

* * *

قال العُشْبِيُّ - مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ - يرثي ابنًا له :

أَضْحَحْتُ بِخَدِّي لِلدُّمُوعِ رُسُومُ أَسَفًا عَلَيْكَ وَفِي الْفُؤَادِ كُلوْمُ
وَالصَّبْرُ يُخَمِدُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومُ

* * *

وقالت أعرابيةٌ تَزْثِي ولدها:

يا قَرْحَةَ الْقَلْبِ والأَخْشَاءِ وَالْكَبِدِ يا لَيْتَ أُمِّكَ لِمَ تَخْبِلُ وَلِمَ تَلِدِ
لَمَّا رَأَيْتُكَ قَدْ أُذْرِجْتَ فِي كَفْنٍ مُطَيَّبًا لِلْمَنَايَا آخِرَ الْأَبْدِ
أَيَقْنَتْ بِعَدَاكَ أَنِّي غَيْرُ بَاقِيَةٍ وَكَيْفَ يَبْقَى ذِرَاعٌ زَالٍ عَنْ عَضْدِ

* * *

الفصل الثالث: في رثاء الأخ

قال الرياشي: صَلَّى مُتَّم بن نُؤيرة الصُّبح مع أبي بكر الصُّديق رضي الله تعالى عنه، ثم أنشد:

نِعْم القَتِيلُ - إذا الرِّياحُ تَتَاوَحَّتْ بين البُيوت - قَتَلْتُ يا ابنَ الأزورِ^(١)
أَدَعَوْتَهُ باللهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ لَوْ هُوَ دَعَاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدِرِ
لَا يُضْمِرُ الفَحْشاءَ تحتَ رِدَائِهِ حُلُوَّ شَمَائِلِهِ عَفِيفُ المِئْزَرِ
قال: ثُمَّ بكى حتى سالت عَيْنُهُ العُوراء. قال أبو بكر: مَا دَعَوْتُهُ وَلَا قَتَلْتَهُ. وقال مُتَّم:

وَمُسْتَضْحِكٍ مِنِّي أَدْعَى كَمُصِيبَتِي وليس أخو الشُّجُو الحَزِينِ بضاحِكِ
يَقُولُ أَتَبْكِي مِنْ قُبُورِ رَأَيْتَهَا لِقَبْرِ بِأَطْرَافِ المَلَا فَالدَّكَادِكِ^(٢)
فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الأَسَى يَتَّعِثُ الأَسَى فَدَعْنِي فَهَذِي كُلُّهَا قَبْرُ مالِكِ

* * *

وقال مُتَّم يَرثِي أخاه مالِكًا، وهي التي تُسَمَّى أمَّ المَراثِي:
لَعَمْرِي وما دَهْرِي بِتَأْبِينِ هالِكِ ولا جَزَعٍ مِمَّا أَلَمَ فَأَوْجَعًا^(٣)

(١) ابن الأزور: ضرار بن الأزور، وهو الذي قتل مالك بن نؤيرة.

(٢) الدكادك: جمع دكدك. وهو من الرمل ما تكبس واستوى.

(٣) ما دهري: أي ما همي وغايتي. ولا جزع، عطف على قوله «بتأبين». يقول: ليس همي بمرثية ميت وإظهار الجزع عليه ولكني أمدح أخي وأظهر فضله. أو لعله يريد أن أخاه قد عاجله الموت وأن هذا الوقت لم يكن لراثته.

لقد غَيَّبَ الْمِنْهَالُ تحتِ رِدَائِهِ فَتَى غَيْرَ مِبْطَانِ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعَا^(١)
ولا بَرَمًا تُهْدِي النِّسَاءَ لِعَرْسِهِ إِذَا الْقَشْعُ من بَرْدِ الشِّتَاءِ تَقَعَّقَا^(٢)
تَرَاهُ كَتَضَلَّ السَّيْفُ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى إِذَا لَمْ تَجِدْ عندَ امرئِ السَّوءِ مَطْمَعَا
فَعَيْنِي هَلَا تَبْكِيَانِ لِمَالِكٍ إِذَا هَزَّتِ الرِّيحُ الْكَئِيفَ الْمُرْفَعَا^(٣)
وَأَزْمَلَةً تَمْشِي بِأَشْعَثَ مُحْتَلٍ كَفَرَّخِ الْحُبَارَى رِيْشُهُ قَدْ تَمَزَّعَا^(٤)
وما كَانَ وَقَافَا إِذَا الْخَيْلُ أَحْجَمَتْ ولا طَالِبًا من خَشْيَةِ الْمَوْتِ مَفْزَعَا^(٥)
ولا بَكْهَامٍ سَيْفُهُ عَن عَدُوِّهِ إِذَا هُوَ لَاقَى حَاسِرًا أو مُقَنَّعَا^(٦)
أَبَى الصَّبْرَ آيَاتٍ أَرَاهَا وَأَنْنِي أَرَى كُلَّ حَبَلٍ بعدَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا^(٧)
وَأَنِّي مَتَى مَا أَدْعُ بِأَسْمِكَ لَمْ تُجِبْ وَكُنْتَ حَرِيًّا أَنْ تُجِيبَ وَتُسْمَعَا
تَحِيَّتَهُ مَتَى وَإِنْ كَانَ نَائِيًا وَأَمْسَى تُرَابًا فَوْقَهُ الْأَرْضُ بَلَقَعَا
فَإِنْ تَكُنِ الْآيَامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا فَقَدْ بَانَ مَحْمُودًا أَخِي حِينَ وَدَّعَا
فَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطٌ كِسْرَى وَتُبَّعَا
وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيمَةً حِقْبَةً من الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَّصِدَّعَا^(٨)

(١) المنهال: رجل من بني يربوع ألقى ثوبه على مالك أخيه متمم يستره به. والمبطان: الضخم البطن. يريد أنه لا يتعجل العشاء انتظاراً في العشيات للضيوف، وهي وقت مجيئهم. والأروع: الذي يعجبك بحسنه وجماله.

(٢) البرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر، وهو ذم. والقشع: البيت من آدم أو جلد. والتقعقع: صوت الجلد إذا ييس.

(٣) الكنيف: حظيرة من شجر تجعل للإبل تقيها البرد. والمرفع: المرفوع.

(٤) يريد «بالأشعث»: ولدها. والمحتل: السيء الغذاء. وتمزج: تفرق.

(٥) أي ليس الجبان الذي يدفعه قومه وينحونه لأنه ليس من رجال الحرب.

(٦) الكهام: الكليل. والمقنع: الذي عليه بيضة ومغفر. والحاسر: ضده.

(٧) يقول: أبي الصبر معالم وآثاراً أراها من آثارك فأذكرك إذا رأيتها فلا أقدر على الصبر. وبعد حبلك أقطعاً: أي قد ذهب الوفاء.

(٨) ندمانا جذيمة: هما مالك وعقيل، نادما جذيمة الأبرش، وكانا رداً عليه ابن أخته عمرو بن عدي فسألهما حاجتهما فسألاه منادمتيه، فكانا نديميه ثم قتلتهما.

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ تَبْتَ لَيْلَةً مَعَا
فَمَا شَارِفَ حَنْتٍ حَيْنًا وَرَجَّعَتْ أَنِينَا فَأَبْكِي شَجْوَهَا الْبَرْكَ أَجْمَعَا^(١)
وَلَا وَجَدُ أَظَارَ ثَلَاثِ رَوَائِمِ رَأَيْنَ مَجْرًا مِنْ حُوَارٍ وَمَضْرَعَا^(٢)
بَأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ قَامَ بِمَالِكِ مُنَادٍ فَصِيحٌ بِالْفِرَاقِ فَأَسْمَعَا
سَقَى اللَّهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكِ ذِهَابُ الْغَوَادِي الْمُدْجَنَاتِ فَأَمْرَعَا^(٣)
قِيلَ لِعَمْرُو بْنِ بَخْرِ الْجَا حِظْ: إِنَّ الْأَصْمَعِيَّ كَانَ يُسَمِّي هَذَا الشَّعْرَ أُمَّ
الْمَرَاثِي؛ فَقَالَ: لَمْ يَسْمَعْ الْأَصْمَعِيُّ:

أَيُّ الْقُلُوبِ عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَنْصَدِعُ وَأَيُّ نَوْمٍ عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَمْتَنِعُ

* * *

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: لَمْ يَتَدَيَّ أَحَدٌ مَرَثِيَّةً بِأَحْسَنَ مِنْ ابْتِدَاءِ أَوْسِ بْنِ
حَجَرٍ:
أَيْتُهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعَا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا
وَبَعْدَهَا قَوْلُ زُمَيْلٍ^(٤):

أَجَارَتْنَا مَنْ يَجْتَمِعُ يَتَفَرَّقُ وَمَنْ يَكُ رَهْنًا لِلْحَوَادِثِ يَغْلَقُ

* * *

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ صَاحِبُ الْمَغَازِي: لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّفْرَاءُ -

(١) الشارِف: المسنة من الإبل، وخصها لأنها أرق من الفتية لبعدها عن الولد. والبرك: الألف من الجمال.

(٢) الأظَار: النوق يعطفن على حوار واحد. والروائِم: النوق تعطف على ولدها. والحوار: ولد الناقة.

(٣) الذهاب: جمع ذهبة وهي القطعة من السحاب. والغوادي: الغيوم التي تغدو بالمطر. والمدجنات: السحب الكثيفة السود. وأمرع: أخصب.

(٤) هو زميل بن أبرد الفزاري.

وقال ابن هشام: الأثيل^(١) - أمر علي بن أبي طالب بضرب عنق النضر بن الحارث بن كَلْدَة بن علقمة بن عبد مناف، صَبْرًا^(٢) بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت أخته قَتِيلَة^(٣) بنت الحارث ترثيه:

يا راكبًا إن الأثيل مَظَنَّةٌ من صُبْحِ خامسةٍ وأنت مَوْفَّقٌ
أبلغ بها مَينًا بأن تَحِيَّةٌ ما إن تزال بها النَّجَائِبُ تَخْفِقُ^(٤)
مَنِي إليك وَعَبْرَةٌ مَسْفُوحَةٌ جادت بواكفها^(٥) وأخرى تَخْنُقُ
هل يَسْمَعُنِي النَّضْرُ إن نَادَيْتُهُ أم كيف يَسْمَعُ مَيِّتٌ لا يَنْطِقُ
أحمدُ يا خير ضِئءٍ^(٦) كريمةٍ في قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضَرْكٌ لو مَنَّتْ وربما مَنَّ الفتى وهو المَغِيظُ الْمُخْنِقُ
فالنَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ أَسْرَتْ قَرَابَةً وأحقُّهم إن كان عِثْقٌ يُعْتِقُ
ظَلَّتْ سُيُوفُ بني أبيه تَنُوشُهُ^(٧) لله أرحامُ هُناكَ تَشَقُّقُ
صَبْرًا يُقَادُ إِلَى المَنِيَّةِ مُتَعَبًا رَسَفَ المُقَيَّدُ وهو عَانٍ مُوْتَقٍ^(٨)
قال ابن هشام: قال النبي ﷺ لما بلغه هذا الشعر: لو بلغني قبل قتلته ما قتلته.

* * *

-
- (١) الأثيل: موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء.
(٢) يقال للرجل يقدم فيضرب عنقه: قتل صبرًا، يعني أنه أمسك على الموت، وكذلك كل مقتول في غير معركة ولا حرب ولا خطأ فإنه مقتول صبرًا.
(٣) وقتيلة: هي بنت النضر لا أخته.
(٤) النجائب: الإبل الكريمة. وتخفق: تسرع.
(٥) الواكف: السائل.
(٦) الضئء: النسل.
(٧) تنوشه: تتناوبه.
(٨) رسف المقيد: مشيه. والعاني: الأسير.

قال الأصمعيّ: نظر عمرُ بن الخطّاب إلى الخنساء وبها ندوب في وجهها، فقال: ما هذه الندوب يا خنساء؟ قالت: من طول البكاء على أخويّ؛ قال لها: أخواك في النار؛ قالت: ذلك أطول لحزني عليهما، إني كنتُ أشفق عليهما من النار، وأنا اليوم أبكي لهما من النار، وأنشدت:

وقائلةٍ والنَّعشُ قد فاتَ خطوها لتُذركه: يا لَهْفَ نفسي على صخرٍ
ألا ثكّلت أمّ الذين غدّوا به إلى القبرِ ماذا يَحْمِلُون إلى القبرِ

* * *

دخلت خنساء على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعليها صِدار من شعر قد استشعرته إلى جلديها، فقالت لها: ما هذا يا خنساء؟ فوالله لقد توفي رسول الله ﷺ فما لبسته؛ قالت: إنّ له معنى دعاني إلى لباسه، وذلك أنّ أبي زوجني سيّد قومه، وكان رجلاً مثلاً فأشرف في ماله حتى أنفده، ثم رجع في مالي فأنفده أيضاً، ثم ألفت إليّ فقال: إلى أين يا خنساء؟ قلتُ: إلى أخي صخر. قالت: فأتيناه فقسّم ماله شطرين، ثم خيّرنا في أحسن الشطرين، فرجعنا من عنده، فلم يزل زوجي حتى أذهب جميعه. ثم ألفت إليّ، فقال لي: إلى أين يا خنساء؟ قلتُ: إلى أخي صخر. قالت: فرحلنا إليه، ثم قسّم ماله شطرين، وخيّرنا في أفضل الشطرين. فقالت له زوجته: أما ترضى أن تشاطرهم مالك حتى تُخيرهم بين الشطرين؟ فقال:

والله لا أمّحها شِرازها فلو هلكت قدّدت خِمَارها
وأتخذت من شعرِ صِدارها وهي حصانٌ قد كفّثني عازها

* * *

وقالت الخنساء تزيّي أخاها صخر بن الشريد:

قَدَى بَعَيْنِكَ أُمٌّ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ أُمٌ أَقْفَرَتْ إِذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ

كَأَنَّ عَيْنِي لِذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرْتُ فَيَضُّ يَسِيلُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِذْرَارُ
فَالْعَيْنُ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ وَحُقَّ لَهَا وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ أُسْتَارُ
بُكَاءَ وَالْهَيْ ضَلَّتْ أَلِفَتَهَا لَهَا حَنِينَانِ إِصْغَارُ وَإِكْبَارُ^(١)
تَرْغَى إِذَا نَسِيتَ حَتَّى إِذَا ذَكَرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالُ وَإِذْبَارُ
وَأَنْ صَخْرًا لَتَأْتِمَ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ
حَامِي الْحَقِيقَةِ مُحْمُودُ الْخَلِيقَةِ مَهْ بِدِي الطَّرِيقَةِ نَفَّاعُ وَضَرَّارُ

* * *

وقالت أيضًا:

أَعِينِي جُودًا وَلَا تَجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرٍ النَّدَى
أَلَا تَبْكِيَانِ الْجَرِيءَ الْجَوَادَ أَلَا تَبْكِيَانِ الْفَتَى السَّيِّدَا
طَوِيلَ النُّجَادِ رَفِيعَ الْعِمَا د سَادَ عَشِيرَتِهِ أَمْرَدَا
يُحْمَلُهُ الْقَوْمُ مَا غَالَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدَا
جَمُوعُ الضُّيُوفِ إِلَى بَابِهِ يَرَى أَفْضَلَ الْكَسْبِ أَنْ يُحْمَدَا

* * *

وقالت أخت الوليد بن طريف ترثي أخاها الوليد بن طريف:

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى أَبْنِ طَرِيفِ
فَتَى لَا يُرِيدُ الْعِزَّ إِلَّا مِنَ الثَّقَى وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَنَا وَسُيُوفِ
وَلَا الدُّخْرَ إِلَّا كُلَّ جَرْدَاءٍ صِلْدِمِ^(٢) وَكُلَّ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ حَلِيفِ

(١) إصغارها: حنينها إذا خفضته. وإكبارها: حنينها إذا رفعت.

(٢) الجرداء: القصيرة الشعر. والصلدم: الشديدة الحافر.

فَقَدْنَاهُ فَقْدَانُ الرَّبِيعِ فَلَيْتَنَا قَدَيْتَنَاهُ مِنْ سَادَاتِنَا بِأُلُوفِ
خَفِيفٌ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ إِذَا غَدَا وَلَيْسَ عَلَى أَعْدَائِهِ بِخَفِيفِ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفَّا فَإِنِّي أَرَى الْمَوْتَ وَقَآعًا بِكُلِّ شَرِيفِ

* * *

وقال آخر يرثي أخاه:

أَخْ طَالَمَا سَرَّنِي ذِكْرُهُ فَقَدْ صِرْتُ أَشْجَى إِلَى ذِكْرِهِ
وَقَدْ كُنْتُ أَغْدُو إِلَى قَضْرِهِ فَقَدْ صِرْتُ أَغْدُو إِلَى قَبْرِهِ
وَكُنْتُ أُرَانِي غَنِيًّا بِهِ عَنْ النَّاسِ لَوْ مُدَّ فِي عُمْرِهِ
وَكُنْتُ إِذَا جِئْتُه زَائِرًا فَأَمْرِي يَجُوزُ عَلَى أَمْرِهِ

* * *

وقال كعب يرثي أخاه أبا المغوار^(١):

تَقُولُ سُلَيْمَى مَا لِيْجِسْمِكَ شَاحِبًا كَأَنَّكَ يَحْمِيكَ الطَّعَامَ طَبِيبُ
فَقُلْتُ شُجُونٌ مِنْ خُطُوبٍ تَتَابَعَتْ عَلَيَّ كِبَارُ وَالزَّمَانُ يَرِيبُ
لَعَمْرِي لَنْ كَانَتْ أَصَابَتْ مَنِيَّةً أَخِي فَالْمَنَايَا لِلرُّجَالِ شَعُوبُ^(٢)
فَأِنِّي لَبَاكِيه وَإِنِّي لَصَادِقُ عَلَيْهِ وَبَعْضُ الْقَائِلِينَ كَذُوبُ
أَخِي مَا أَخِي لَا فَاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ وَلَا وَرَعٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ هَيُوبُ
أَخْ كَانَ يَكْفِينِي وَكَانَ يُعِينُنِي عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَتُوبُ
هُوَ الْعَسَلُ الْمَازِي لِيْنَا وَشِيْمَةً وَلَيْتَ إِذَا لَاقَى الرُّجَالُ قَطُوبُ^(٣)

(١) اسم أبي المغوار على الأصح هرم؛ وقيل شبيب.

(٢) شعوب: أي مفرقة.

(٣) الماذي: الأبيض، وهو أجود العسل. وقطوب: عابس.

هَوَتْ أُمُّهُ^(١) مَا يَتَعَثُّ الصُّبْحُ غَادِيًا
كَعَالِيَةِ الرُّمَحِ الرُّدَيْنِي لَمْ يَكُنْ
وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَا
فَقُلْتُ أَدْعُ أُخْرَى وَارْفَعِ الصَّوْتِ ثَانِيًا
يُجِيبُكَ كَمَا قَدْ كَانَ يَفْعَلُ إِنَّهُ
وَحَدَّثْتُمَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَى
فَلَوْ كَانَتْ الْمَوْتَى تُبَاعُ اشْتَرَيْتُهُ
بِعَيْنِي أَوْ يُمْنَى يَدَيَّ وَخِلْتُنِي
لَقَدْ أَفْسَدَ الْمَوْتُ الْحَيَاةَ وَقَدْ أَتَى
أَتَى دُونَ حُلُوِّ الْعَيْشِ حَتَّى أَمَرَهُ
فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَاهُ مَا ذَرَّ شَارِقُ
فَإِنْ تَكُنْ الْآيَامُ أَحْسَنَ مَرَّةً
وَمَاذَا يَرُدُّ اللَّيْلُ حِينَ يَوْوُبُ
إِذَا أَبْتَدَرَ الْخَيْلَ الرِّجَالُ يَخِيبُ
فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبُ
لَعَلَّ أَبَا الْمَغَوَّارِ مِنْكَ قَرِيبُ
بِأَمْثَالِهَا رَحْبُ الذَّرَاعِ أَرِيبُ
فَكَيْفَ وَهَاتِي هَضْبَةً وَكُثِيبُ
بِمَا لَمْ تَكُنْ عَنْهُ الثُّفُوسُ تَطِيبُ
أَنَا الْغَائِمُ الْجَذْلَانُ حِينَ يَوْوُبُ
عَلَى يَوْمِهِ عِلْقُ^(٢) إِلَيَّ حَبِيبُ
قُطُوبُ عَلَى آثَارِهِنَّ نُكُوبُ^(٣)
وَمَا اهْتَزَّ فِي فَرْعِ الْأَرَاكِ قَضِيبُ^(٤)
إِلَيَّ لَقَدْ عَادَتْ لَهْنُ دُئُوبُ

* * *

(١) هوت أمه: دعاء عليه، ومعناه التعجب. ويريد هنا استعظام الحزن عليه.

(٢) العلق: النفيس.

(٣) نكوب: مصائب.

(٤) ذر شارق: أشرقت شمس. الأراك: نوع من الشجر.

الفصل الرابع: في رثاء الزوجة

جرير يرثي زوجته

هو أبو حرزة جرير بن عطية (٣٣ هـ / ٦٥٣ م - ١١٤ هـ / ٧٣٣ م) اشتهر بالهجاء، وراح يرمي به الخصوم قوياً شديد اللهجة، فذاع صيته، ورددت اسمه الركبان. نشبت بينه وبين الفرزدق حرب هجائية دامت خمسين سنة، كان الشاعر منهما ينظم القصيدة ويبعث بها إلى خصمه، فينقض الخصم ما قيل فيها بقصيدة ينظمها على الوزن نفسه، والقافية نفسها. وسميت تلك القصائد «النقائض».

له ديوان شعري في المدح، والرثاء، والغزل، والهجاء. ورثاء جرير سواء أكان في ذويه أم في غيرهم، هو رثاء من يشعر بالمصيبة شعوراً عميقاً، فينهّد لها كيانه، ثم يطلق اللسان فيما يفيض من القلب، وإذا اللسان ترجمان النفس، والألفاظ أنفاس حارة، وإذا الشعر يسيل سيلان الدموع المنهمرة، في انسجام، وسهولة، ورقة؛ وإذا أمامك مشهد مؤلم، هو مشهد تراءى فيه ذكريات الرجل أحبة وصفات محبة إلى كل نفس، وأعمالاً غراء؛ وإذا الشاعر ينطلق بين المناجاة، والنداء، ومخاطبة الميت، والأخبار، رائع الأسلوب، عجيب السلاسة؛ وإذا الزفرات المتصاعدة أدعية واستلفاتاً تقف بين المقطع والمقطع، وبين الفكرة والفكرة، شرارات تعصر القلوب وتستقطر الجفون.

ومن قصيدة طويلة وجهها إلى خصمه الفرزدق هاجياً، افتتحها برثاء

امراته، فقال:

لَوْلَا الْحَيَاءُ، لَعَادَنِي أَسْتِغْبَارُ، وَلَزَزْتُ بَيْتَكَ، وَالْحَبِيبُ يُزَارُ^(١)
وَلَقَدْ نَظَرْتُ، وَمَا تَمَتُّعُ نَظْرَةَ فِي اللَّحْدِ حَيْثُ تَمَكَّنَ الْمِحْفَارُ^(٢)
وَلَهْتَ قَلْبِي، إِذْ عَلَّشْنِي كَبْرَةً، وَذَوُّ التَّمَائِمِ مِنْ بَيْنِكَ صِفَارُ^(٣)
أَزَعَى النُّجُومَ، وَقَدْ مَضَتْ غُورِيَّةُ، عُصْبُ النُّجُومِ كَأَنَّهُنَّ صَوَارُ^(٤)
نِعَمَ الْقَرِينِ، وَكُنْتُ عِلَقَ مَضْنَةٍ، وَأَرَى بِنَعْفٍ بُلْيَةَ الْأَخْجَارُ^(٥)
عَمَرْتُ مُكْرَمَةَ الْمَسَاكِ وَفَارَقْتُ مَا مَسَّهَا صَلَفٌ وَلَا إِقْتَارُ^(٦)
فَسَقَى صَدَى جَدَثٍ، بِبُرْقَةٍ ضَاكِ هَزِمَ أَجَشُّ، وَدِيمَةُ مِذْرَارُ^(٧)
هَزِمَ أَجَشُّ، إِذَا اسْتَحَارَ بِبَلْدَةِ فَكَأَنَّمَا بِجَوَائِهَا الْأَنْهَارُ^(٨)
مُتْرَاكِمْ زَجَلٌ يُضِيءُ وَمِیْضُهُ كَالْبُلْقِ تَحْتَ بُطُونِهَا الْأَمْهَارُ^(٩)
كَانَتْ مُكْرَمَةَ الْعَشِيرِ وَلَمْ يَكُنْ يَخْشَى غَوَائِلَ أُمِّ حَزْرَةَ جَارُ^(١٠)
وَلَقَدْ أَرَاكَ كُسِيتَ أَجْمَلَ مِنْظَرٍ وَمَعَ الْجَمَالِ سَكِينَةٌ وَوَقَارُ

(١) استعمار: بكاء. بيتك: قبرك.

(٢) المحفار: آلة الحفر.

(٣) ولهة: حزينة أشد الحزن. التمايم: ج تيمة وهي خرزة أو عوذة تُعلَّق في عنق الولد دفعا للأخطار.

(٤) الغورية: التي تأخذ الغور للغروب والسقوط: العصب: الجماعات. الصوار: قطع بقر الوحش.

(٥) العلق: النفس من كل شيء. المضنة: ما يضمن به. النعف: أسفل الجبل وأعلى الوادي. بلية: اسم موضع.

(٦) المساك: اسم الإمساك. الصلف: بغض من الزوج. الإقتار: العسر.

(٧) الصدى: كان العرب يعتقدون بأنه يخرج من رأس القليل طير يسمونه «صدى» يظل عطشان يصيح «اسقوني» حتى يؤخذ بثأره. الهزم: السحاب الراعد. الأجش: الغليظ الصوت من الرعد. برقة ضاحك: اسم موضع.

(٨) الجواء: ج جو وهو الناحية والجهة.

(٩) زجل: ذو جلبة، البلق ج أبلق وهو ما كان في لونه سواد وبياض.

(١٠) الغوائل: المصائب.

وَالرَّيْحُ طَيِّبَةٌ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا
وَإِذَا سَرَيْتُ رَأَيْتُ نَارَكَ نَوَّرَتْ
صَلَّى الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ تُخَيِّرُوا
وَعَلَيْكَ مِنْ صَلَوَاتِ رَبِّكَ كُلَّمَا
يَا نَظْرَةً لَكَ، يَوْمَ هَاجَتْ عَبْرَةٌ
تُخَيِّي الرُّوَامِسُ رِبْعَهَا، فَتُجِدُّهُ
وَكَأَنَّ مَنَزِلَةً لَهَا، بِحُلَا حِلٍ
لَا تُكْثِرَنَّ، إِذَا جَعَلْتَ تَلُومُنِي
كَانَ الْخَلِيطُ هُمَّ الْخَلِيطُ، فَأَضْبَحُوا
لَا يَلْبَثُ الْقُرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا
وَالْعِرْضُ لَا دَنَسٌ وَلَا خَوَارُ^(١)
وَجْهَهَا أَغْرَ، يَزِينُهُ الْإِسْفَارُ
وَالصَّالِحُونَ عَلَيْكَ، وَالْأَبْرَارُ
نَصَبَ الْحَجِيجِ مُلَبِّدِينَ، وَغَارُوا^(٢)
مِنْ أُمِّ حَرْزَةٍ، بِالنُّمَيْرَةِ دَارُ
بَعْدَ الْبَلَى، وَتُمِيتُهُ الْأَمْطَارُ^(٣)
وَحَيُّ الزُّبُورِ تُجِدُّهُ الْأَخْبَارُ^(٤)
لَا يَذْهَبَنَّ بِحِلْمِكَ الْإِكْثَارُ
مُتَبَدِّلِينَ، وَبِالدِّيَارِ دِيَارُ
لَيْلٍ يَكُرُّ عَلَيْهِمْ وَنَهَارُ!

* * *

(١) الخوار: الضعيف.

(٢) نصب: تعب. الحجيج ج حاج. ملبدين: مقيمين. غار الرجل: نام.

(٣) الروامس: الرياح.

(٤) الزبور: المزامير. تجده: تكتبه فتحكمه.

ديك الجنّ يرثي زوجته

هو عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي (١٦١هـ / ٧٧٨م - ٢٣٥هـ / ٨٥٠م) المعروف بديك الجنّ، شاعر مجيد فيه مجون، من شعراء العصر العباسيّ. سُمّي بديك الجنّ لأنّ عينيه كانتا خضرواين. أصله من سلمية (قرب حماة)، ومولده ووفاته بحمص في سورية. لم يفارق بلاد الشام. ولم ينتجع بشعره. له «ديوان شعر»^(١).

ولديك الجنّ قصّة طريفة مع زوجته، ورد ملخصها أنّه أحبّ فتاة نصرانيّة تدعى ورد، فتزوَّجها بعدما اعتنقت الإسلام، وعاشا معًا حياةً هائلة سعيدة. وعندما ساءت حال ديك الجنّ الماديّة، قصد صديقه أحمد بن علي الهاشميّ في سلمية، وأقام عنده مدّة. وفي أثناء ذلك لفق ابن عمّه أبو الطيب خبر علاقة ورد بأحد غلمان الشاعر المدعو بكر، وكان أبو الطيب يبغض الشاعر لهجائه له.

شاع خبر علاقة ورد ببكر، حتى وصل إلى مسامع ديك الجنّ الذي استأذن صديقه أحمد في العودة إلى حمص، وكان أن نجحت المؤامرة، فقتل ديك الجنّ زوجته ورد وعشيقتها المزعوم بكر. وبعد مدّة عرف الحقيقة، فندم ندمًا كبيرًا على فعلته وراح يبكي زوجته طوال حياته. ومما قال فيها بعد موتها نقتطف ما يلي: [من الطويل]

وأنسّة عذب الثنايا وجدّتها على خطّة فيها لذي اللب متلفٌ

(١) الزركلي: الأعلام ٥/٤.

فأصلتُ حدَّ السيفِ في حرِّ وجهها وقلبي عليها من جوى الوجدِ يرجفُ
فخرَّت كما خرَّت مهاةٌ أصابها أخو قنصرٍ مستعجلٌ متعسفُ
سيقتلني حزناً عليها تأسفي وهيهات ما يُجدي عليّ التأسفُ

* * *

يا طلعةً طلع الجِمامُ^(١) عليها وجنى لها تمر الردى بيديها
رؤيتُ من دمها الثرى ولطالما روى الهوى شفتيَّ من شفتيها
قد بات سيفي في مجالٍ وشاحيها ومدامعي تجري على خديها
فوحقُّ نعلها وما وطئ الحصى شيءٌ أعزُّ عليّ من نعلها
ما كان قتلها لأنني لم أكن أبكي إذا سقط الغبارُ عليها
لكن ضمنتُ على العيونِ بحسنيها وأنفتُ من نظرِ الحسودِ إليها

* * *

(١) الجِمام والردى: الموت.

نزار قبّاني يرثي زوجته

شاعر من كبار الشعراء العرب المعاصرين، فلسطيني الأصل، سوري المولد والجنسية، لبناني الإقامة والهوى. ولد في دمشق في السنة ١٩٣٢م/١٣٤٢هـ، وتخرّج في الجامعة السورية بإجازة في الحقوق، وخدم وطنه في السلك الدبلوماسي ما بين ١٩٤٥م، والسنة ١٩٦٦م. يُعتبر من كبار المجدّدين في الأدب العربي المعاصر. لقّب بـ«شاعر المرأة»، واشتهر بالغزل، لا بالرّثاء، ولكن له قصيدة طويلة قالها في رثاء زوجته العراقية بلقيس عندما قُتلت بانفجار في بيروت، وهي تدلّ على أنّ عبقرية الشاعر لا تقتصر على ضرب من ضروب الفنّ الغنائيّ، فالمُبدع المُجيد يُبدع ويُجيد في أيّ فنّ غنائيّ عزف على أوتاره. وفيما يلي بعض المقاطع من هذه القصيدة:

* * *

شُكْرًا لَكُمْ...

شُكْرًا لَكُمْ

فَحَبِيبَتِي قُتِلَتْ، وصار بِؤْسِكُمْ

أَنْ تَشْرَبُوا كَأْسًا على قَبْرِ الشَّهِيدَةِ

وَقَصِيدَتِي اغْتِيلَتْ...

وَهَلْ مِنْ أُمَّةٍ فِي الْأَرْضِ

إِلَّا نَحْنُ نَغْتَالُ الْقَصِيدَةَ

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

كَانَتْ أَجْمَلَ الْمَلِكَاتِ فِي تَارِيخِ بَابِلَ

بَلْقَيْسُ . . .

كَانَتْ أَطْوَلَ النَّخْلَاتِ فِي أَرْضِ الْعِرَاقِ

كَانَتْ إِذَا تَمْشِي

تُرَافِقُهَا طَوَاوِيسُ . . .

وَتَتَّبِعُهَا أَيَّامِلُ . . .

بَلْقَيْسُ . . . يَا وَجَعِي . . .

وَيَا وَجَعَ الْقَصِيدَةِ تَلْمَسُهَا الْأَنَامِلُ

هَلْ يَا تُرَى . . .

مِنْ بَعْدِ شَعْرِكَ سَوْفَ تَرْتَفِعُ السَّنَابِلُ؟؟

* * *

يَا نِيَّوَى الْخَضِرَاءِ

يَا غَجَرِيَّتِي الشَّقَرَاءِ

يَا أَمْوَاجَ دِجْلَةَ

تَلْبَسُ فِي الرَّبِيعِ بِسَاقِهَا

أَخْلَى الْخَلَاجِلَ

* * *

بَلْقِيسُ

لَا تَتَغَيَّبِي عَنِّي

فَإِنَّ الشَّمْسَ بَعْدَكَ

لَا تُضِيءُ عَلَى السَّوَاكِحِلِ

* * *

بَلْقِيسُ!

أَيُّهَا الشَّهِيدَةُ . . وَالْقَصِيدَةُ

وَالْمُطَهَّرَةُ النَّقِيَّةُ . .

سَبَأُ تُفَشِّشُ عَنْ مَلِيكَتِهَا

فَرْدِي لِلْجَمَاهِيرِ التَّحِيَّةُ

* * *

الْمَوْتُ فِي فُنْجَانِ قَهْوَتِنَا . .

وَفِي مِفْتَاحِ شِقَّتِنَا . .

وَفِي أَزْهَارِ شُرْفَتِنَا . .

وفي وَرَقِ الْجَرَائِدِ ..

والحروفِ الأَبْجَدِيَّةِ ..

* * *

بَلْقَيْسُ ...

يا عِطْرًا بِذَاكِرتي

ويا قَبْرًا يُسَامِرُ في الغَمَامِ

قَتْلُوكِ، في بيروت، مِثْلَ أَيِّ غَزَالَةٍ

مِنْ بَعْدِهَا .. قَتَلُوا الكلامَ

* * *

بَلْقَيْسُ

مُشْتَاقُونَ .. مُشْتَاقُونَ .. مُشْتَاقُونَ ..

والبيتُ الصَّغِيرُ ..

يُسَائِلُ عَنْ أَمِيرَتِهِ الْمُعْطَرَةَ الذُّيُولَ

نُضْغِي إِلَى الْأَخْبَارِ .. الْأَخْبَارُ غَامِضَةٌ

ولا تَرَوِي فُضُولَ

* * *

بَلْقَيْسُ ...

مُذَبِّحُونَ حَتَّى الْعَظَمِ

والأولاد لا يذرون ما يجري

ولا أدري أنا ماذا أقول

* * *

هل تفرعين الباب بعد دقائق

هل تخلعين المعطف الشتوي

هل تأتين باسمه . . .

وناضرة . . .

ومشرقة كأزهار الحقل

* * *

بلقيس . . .

إن زروعك الخضراء

ما زالت على الحيطان باكية

وجبهك لم يزل متقللاً

بين المرايا والستائر

حتى سجارتك التي أشعلتها

لم تنطفئ

ودخانها

ما زال يَرْفُضُ أَنْ يُسَافِرَ

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

مَطْعُونُونَ مَطْعُونُونَ فِي الْأَعْمَاقِ

وَالْأَخْدَاقُ يَسْكُنُهَا الدُّهُولُ

بَلْقَيْسُ . .

كَيْفَ أَخَذْتَ أَيَّامِي وَأَخْلَامِي

وَأَلْغَيْتِ الْحَدَائِقَ وَالْفُصُولَ؟!!

* * *

يَا زَوْجَتِي . . .

وَحَبِيبَتِي . . وَقَصِيدَتِي . . وَضِيَاءَ عَيْنِي

قَدْ كُنْتَ عُصْفُورِي الْجَمِيلَ

فَكَيْفَ هَرَبْتَ يَا بَلْقَيْسُ مِنِّي؟

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

هَذَا مَوْعِدُ الشَّايِ الْعِرَاقِيِّ الْمُعَطَّرِ

وَالْمُعَتَّقِ كَالسُّلَافَةِ

فَمَنْ الَّذِي سَيُوزَعُ الْأَقْدَاحُ أَيْثُهَا الزَّرَافَةُ

وَمَنِ الَّذِي نَقَلَ الْفُرَاتَ لَبَيْتِنَا

وورود دجلة والرصافة

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

يا بَلْقَيْسُ . . .

يا بَلْقَيْسُ . . .

كُلُّ غَمَامَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ

فَمَنْ تُرَى يَبْكِي عَلَيَّ

بَلْقَيْسُ . . . كَيْفَ رَحَلْتَ صَامِتَةً

وَلَمْ تَضَعِي يَدَيْكَ عَلَى يَدَيَّ؟

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

أَسْأَلُكَ السَّمَاحَ، فَرُبَّمَا

كَانَتْ حَيَاتُكَ فِدْيَةً لِحَيَاتِي

إِنِّي لَأَعْرِفُ جَيِّدًا

أَنَّ الَّذِينَ تَوَرَّطُوا فِي الْقَتْلِ كَانَ مُرَادُهُمْ

أَنْ يَقْتُلُوا كَلِمَاتِي .

نامي بِحِفْظِ الله ، أَيُّهَا الجميلة
فالشُّعْرُ بِغَدِّكَ مُسْتَجِيلٌ
والأُنُوثَةُ مُسْتَجِيلَةٌ
سَتَظَلُّ أَجْيَالٌ مِنْ الأَطْفَالِ
تَسْأَلُ عَنْ ضَفَائِرِكَ الطَّوِيلَةِ
وَتَظَلُّ أَجْيَالٌ مِنْ العُشَّاقِ
تَقْرَأُ عَنْكَ أَيُّهَا المَعْلَمَةُ الأَصِيلَةُ...

* * *

الفصل الخامس: في رثاء الزوج

لبانة بنت علي بن ربيعة ترثي زوجها

هي شاعرة من شواعر العرب في العصر العباسي، كانت من أجمل نساء عصرها، تزوجها محمد بن هارون الرشيد، لكنه سرعان ما قُتل عنها، ولم يبقَ بها، فقالت ترثيه:

أبكىكَ لا لِلنَّعِيمِ والأُنْسِ بل للمعالي والرمح والفرسِ
يا فارسًا بالعراءِ مطرَحًا خانتَه قَواده مع الحرسِ
أبكى على سيِّدٍ فُجعتُ به أزمَلَنِي قبل ليلة العرسِ
أُمٌّ مَنْ لَبِزَ أُمٌّ مَنْ لعائِدَةٍ أُمٌّ مَنْ لذكرِ الإلهِ في الغلسِ
مَنْ للحروبِ التي تكونُ لها إنْ أَضْرِمَتْ نارُها بلا قبسٍ^(١)

* * *

أعرابية ترثي زوجها

قالت أعرابية ترثي زوجها^(٢):

كُنَّا كَغَصْنَيْنِ فِي جَرثُومَةٍ^(٣) سَمَوْا حِينًا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمُو لَهُ الشَّجَرُ

(١) العقد الفريد ٢٧٧/٣.

(٢) عن العقد الفريد ٢٧٧/٣؛ وفي عيون الأخبار ٧٥/٣ أنَّ الأبيات لصفية الباهلية ترثي أخاها.

(٣) الجرثومة: الأصل.

حتى إذا قيل قد طالت فروعهما وطاب قنواهما^(١) واستنظر الثمر
أخنى على واحد ريب الزمان وما يُبقي الزمان على شيء ولا يذر^(٢)
كنا كأنجم ليل بينها قمر يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

* * *

(١) القنو: العذق، وهو من التخل كالعنقود من العنب.

(٢) أخنى عليه الزمان: أهلكه. ريب الزمان: مصائبه. يذر: يترك.

الباب السابع

في التعازي^(١)

(١) أخذنا هذا الملحق من كتاب «العقد الفريد».

قال عبد الرحمن بن أبي بكر لسليمان بن عبد الملك يُعزِّيهِ في ابنه
أيوب وكان وليَّ عهده وأكبر ولده: يا أمير المؤمنين، إنه من طال عمره فَقَدْ
أَحَبَّهُ، ومن قَصُرَ عُمره كانت مُصِيبَتُهُ في نفسه. فلو لم يكن في ميزانك
لَكُنْتَ في ميزانه.

* * *

وَكَتَبَ الحَسَنُ بن أبي الحسن إلى عُمَرَ بن عبد العزيز يُعزِّيهِ في ابنه
عبد الملك:

وَعَوَّضْتَ أَجْرًا مِنْ فَقِيدٍ فَلَا يَكُنْ فَقِيدُكَ لَا يَأْتِي وَأَجْرُكَ يَذْهَبُ

* * *

قال العُثْبِيُّ: قال عبد الله بن الأَهِمَّ: مات لي ابن وأنا بمكة فجزعتُ
عليه جَزَعًا شَدِيدًا، فَدَخَلَ عَلَيَّ ابْنُ جُرَيْجٍ يُعزِّيَنِي، فقال لي: يا أبا محمد،
أَسَلُّ صَبْرًا وَأَخْتِسَابًا قَبْلَ أَنْ تَسْلُو غَفْلَةً وَنِسْيَانًا كَمَا تَسْلُو الْبَهَائِمَ. وهذا
الكلامُ لعلِّي بن أبي طالب كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ يُعزِّي به الأَشْعَثَ بن قيس في ابن
له، ومنه أَخَذَهُ ابن جُرَيْجٍ. وقد ذَكَرَهُ حبيب في شعره فقال:

وقال عليُّ في التعازي لأَشْعَثٍ وخاف عليه بعضُ تلك المآثم
أَتَصْبِرُ لِلْبُلُوَى عِزَاءً وَحِسْبَةً فَتُؤَجَّرَ أَمْ تَسْلُو سُلُوَ الْبَهَائِمِ

* * *

أتى عليُّ بنُ أبي طالب كَرَّمَ الله وجهه لَأَشْعَثُ يُعَزِّيهِ عن ابنه، فقال :
إِنْ تَحْزَنُ فَقَدْ أَسْتَحَقَّ ذَلِكَ مِنْكَ الرَّحْمَ، وَإِنْ تَصْبِرْ فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْفًا مِنْ
كُلِّ هَالِكٍ، مَعَ أَنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ
جَزِغْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ آثِمٌ.

* * *

وعزَّى ابنُ السَّماك رجلاً فقال: عليك بالصَّبْر، فيه يَعمَلُ مِنْ
أَحْسَبَ، وَإِلَيْهِ يَصِيرُ مَنْ جَزِعَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَتْ مُصِيبَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا أَعْظَمُ
مِنْهَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيهَا أَوْ مَعْصِيَتُهُ بِهَا.

* * *

قال الأصمعيُّ: عزَّى صالحُ المُرِّي رجلاً بآبَنِهِ، فقال له: إِنْ كَانَتْ
مُصِيبَتُكَ لَمْ تُحْدِثْ لَكَ مَوْعِظَةً فَمُصِيبَتُكَ بِنَفْسِكَ أَعْظَمُ مِنْ مُصِيبَتِكَ
بِأَبْنِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ التَّهْنِئَةَ عَلَى آجِلِ الثَّوَابِ أَوْلَى مِنَ التَّعْزِيَةِ عَلَى عَاجِلِ
الْمُصِيبَةِ.

* * *

قال العُتبيُّ: عزَّى أبي رجلاً فقال: إِنَّمَا يَسْتَوْجِبُ عَلَى اللَّهِ وَعْدَهُ مَنْ
صَبَرَ لِحَقِّهِ، فَلَا تَجْمَعُ إِلَى مَا فُجِعْتَ بِهِ الْفَجِيعَةَ بِالْأَجْرِ، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ
الْمُصِيبَتَيْنِ عَلَيْكَ، وَلِكُلِّ أَجْتِمَاعٍ فُرْقَةٌ إِلَى دَارِ الْحُلُولِ.

* * *

عزَّى عبدُ الله بنُ عباسٍ عمر بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه في بُنْي
له صَغِيرٌ، فقال: عَوَّضَكَ اللَّهُ مِنْهُ مَا عَوَّضَهُ اللَّهُ مِنْكَ.

* * *

وكان عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه إذا عزَّى قوماً قال: عليكم
بالصَّبْر، فَإِنَّ بِهِ يَأْخُذُ الْحَازِمُ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْجَازِعُ.

وكان الحسنُ يقول في المصيبة: الحمدُ لله الذي آجرنا على ما لو
كلَّفنا غيره لعَجَزنا عنه.

* * *

كتاب تعزية

أما بعد، فإنَّ أحقَّ مَنْ تعزَّى، وأولى مَنْ تأسَّى وسلَّم لأمر الله، وقَبِلَ
تأديبه في الصَّبر على نكبات الدنيا، وتجرَّع غصص البلوى، مَنْ تَنَجَّز من
الله وعده، وفهم عن كتابه أمره، وأخلص له نفسه، واعترف له بما هو
أهله. وفي كتاب الله سلوة من فقد كلَّ حبيب وإن لم تطب النفسُ عنه،
وأُتس من كلِّ فقيد وإن عظمت اللوعةُ به، إذ يقول عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ
هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١) وحيث يقول: ﴿الَّذِينَ إِذَا
أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ * أولئك عليهم صلوات من
ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون﴾^(٢). الموت سبيل الماضين
والغابرين، ومورد الخلائق أجمعين، وفي أنبياء الله وسالف أوليائه
أفضل العبرة، وأحسن الأسوة، فهل أحدٌ منهم إلَّا وقد أخذ من فجائع
الدنيا بأجزل العطاء، ومن الصبر عليها بأحساب الأجر فيها بأوفر
الأنصبياء؛ فُجع نبينا عليه الصلاة والسلام بأبنة إبراهيم، وكان ذخراً
الإيمان، وقرّة عين الإسلام، وعقب الطهارة، وسليل الوحي، ونتيج
الرحمة، وخضين الملائكة، وبقية آل إبراهيم وإسماعيل صلوات الله عليهم
أجمعين وعلى عامة الأنبياء والمرسلين، فعمت الثقلين مصيبتُهُ، وخصت
الملائكة رزيته، ورضي ﷺ من فراقه بثواب الله بدلاً، ومن فقدانه عوّضاً،
فشكر قضاؤه، وأتبع رضاه، فقال: يَحْزَنُ الْقَلْبُ وَتَذْمَعُ الْعَيْنُ، وَلَا نَقُولُ مَا
يُسَخِّطُ الرَّبَّ، وَإِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَخْزُونُونَ. وإذا تأمل ذو النظر ما هو
مُشفٍ عليه من غير الدنيا، وانتصح نفسه وفكره في غيرها بتنقل الأحوال،

(١) القصص: ٨٨

(٢) البقرة: ١٥٦ و ١٥٧

وتقارب الآجال، وأنقطاع يسير هذه المدة، ذلت الدنيا عنده، وهانت المصائب عليه، وتسهلت الفجائع لديه، فأخذ للأمر أهبطه، وأعد للموت غدته. ومن صاحب الدنيا بحسن رؤية، ولا حظها بعين الحقيقة، كان على بصيرة من وشك زوالها. قال النبي ﷺ: اذكروا الموت فإنه هادم اللذات، ومُنْعَصُ الشَّهَوَات. وليس شيء مما أقتصصت إلا وقد جعلك الله مُقَدِّمًا في العلم به. ولعمري إن الخطب فيما أُصِبت به لعظيم، غير أن تعوضه من الأجر والمثوبة عليه بحسن الصبر يهونان الرزية وإن ثقلت، ويسهلان الخطب وإن عظم. وهب الله لك من عزمة الصبر ما يكمل لك به زلفى الفائزين، ومزيد الشاكرين، وجعلك من المرتضين قولاً وفِعْلاً، الذين أعطاهم الحسنى، ووفَّقهم للصبر والتقوى.

قال محمد بن الفضل عن أبي حازم: مات عتبة بن عياض بن غنم الفهري، فعزى رجل أباه فقال: لا تجزع عليه فقد قُتِلَ شهيداً؛ فقال: وكيف أجزع على من كان في حياته زينة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات.

قال ابن الغاز: حَدَّثَنَا عيسى بن إسماعيل قال: سمعتُ الأصمعي يقول: دخلتُ على جعفر بن سليمان وقد ترك الطعامَ جَزَعًا على أخيه محمد بن سليمان، فأنشدته بيتين، فما برحتُ حتى دعا بالمائدة. فقلتُ للأصمعي: ما هما، فسكت: فسألته، فقال: أتدري ما قال الأحوص؟ قلت: لا أدري؛ قال؛ قال الأحوص:

قد زاده كلفاً بالحبِّ إذ منعتُ أَحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعَا

قال أبو موسى: والأبيات لأراكة الثقي يَرثي بها عمرو بن أراكة

ويعزّي نفسه حيث يقول:

لَعَمْرِي لئن أَتَبَعْتَ عَيْنَكَ مَا مَضَى به الدَّهْرُ أَوْ ساقِ الحِمَامُ إِلَى القَبْرِ
لَتَسْتَنفِذَنَّ مَاءَ الشُّؤُونِ بِأَسْرِهِ وَإِنْ كُنْتَ تَمْرِيهَنَّ مِنْ تَبِجِ البَحْرِ^(١)
تَبَيَّنْ فَإِنْ كَانَ البُكَاءُ رَدَّ هَالِكًا عَلَى أَحَدٍ فَاجْهَدْ بُكَاءَكَ عَلَى عَمْرٍو
فَلَا تَبْكِ مَيِّتًا بَعْدَ مَيِّتِ أَجَنَّةٍ^(٢) عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ وَآلِ أَبِي بَكْرٍ

* * *

قال أبو عمر بن يزيد: لما مات أخو مالك بن دينار، بكى مالك،
وقال: يا أخي، لا تَقْرُ عَيْنِي بَعْدَكَ حَتَّى أَعْلَمَ أَفِي الجَنَّةِ أَنْتَ أَمْ فِي النَّارِ،
وَلَا أَعْلَمُ ذَلِكَ حَتَّى أَلْحَقَ بِكَ.

* * *

وقالت أعرابية، ورأت مَيِّتًا يُدْفَنُ: جافى الله عن جَنَّتِيهِ الثَّرَى وَأَعَانَهُ
عَلَى طَوْلِ البِلَى.

* * *

وعزّي أعرابيٌّ رجلاً فقال: أوصيك بالرُّضا من الله بقضائه، والتَّنَجُّزِ
لما وَعَدَ بِهِ مِنْ ثَوَابِهِ، فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ زَوَالٍ، وَلَا بَدَ مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ.

* * *

وعزّي أيضًا رجلاً فقال: إِنَّ مِنْ كَانَ لَكَ فِي الآخِرَةِ أَجْرًا، خَيْرٌ لَكَ
مِمَّنْ كَانَ لَكَ فِي الدُّنْيَا سُورًا.

* * *

(١) مرى الشيء: استخرجه. وثبج كل شيء: معظمه.

(٢) في بعض الأصول: «أحبه».

وَجَزَعَ رَجُلٌ عَلَى ابْنِ لَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الْحَسَنِ؛ فَقَالَ لَهُ: هَلْ كَانَ ابْنُكَ يَغِيبُ عَنْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَانَ مَغِيبُهُ عَنِّي أَكْثَرَ مِنْ حَضُورِهِ؛ قَالَ: فَاتْرُكْهُ غَائِبًا فَإِنَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبَةً الْأَجْرُ لَكَ فِيهَا أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْغَيْبَةِ. وَعَزَى رَجُلٌ نَصْرَانِيٌّ مُسْلِمًا، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ مِثْلِي لَا يُعْزِي مِثْلَكَ، وَلَكِنْ انْظُرْ مَا زَهَدٌ فِيهِ الْجَاهِلُ فَارْغَبْ فِيهِ.

* * *

وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَجْلِسِهِ وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ، إِذْ سَمِعَ نَاعِيَةً فِي بَيْتِهِ، فَتَهَضَّ إِلَى مَنْزِلِهِ فَسَكَّنَهُمْ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَجْلِسِهِ، فَقَالُوا لَهُ: أَمِنْ حَدَثٍ كَانَتْ النَاعِيَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَعَزَّوهُ وَعَجَّبُوا مِنْ صَبْرِهِ فَقَالَ: إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ نُطِيعَ اللَّهَ فِيمَا نُحِبُّ، وَنُحَمِّدُهُ عَلَى مَا نَكْرَهُ.

* * *

تعزية

أَلْتَمَسَ مَا وَعَدَ اللَّهُ مِنْ ثَوَابِهِ بِالتَّسْلِيمِ لِقَضَائِهِ، وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى أَمْرِهِ، فَإِنْ مَا فَاتَ غَيْرَ مُسْتَدْرَكَ.

* * *

وَعَزَى مُوسَى الْمَهْدِيَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ سَلَمَ عَلَى ابْنِ لَهُ مَاتَ، فَجَزَعَ عَلَيْهِ جَزَعًا شَدِيدًا، فَقَالَ لَهُ: أَيْسْرُكَ وَهُوَ بَلِيَّةٌ وَفِتْنَةٌ، وَيَحْزُنُكَ وَهُوَ صَلَوَاتٌ وَرَحْمَةٌ؟

* * *

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: مَا أُعْطِيَتْ أُمَّةٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ مَا أُعْطِيَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ قَوْلِهَا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. وَلَوْ أُعْطِيَهَا أَحَدٌ لِأَعْطَاهَا يَعْقُوبُ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿يَا أَسْفَا عَلَى يُوسُفَ، وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(١).

(١) يوسف: ٨٤.

وَعَزَى رَجُلٌ رَجُلًا بِأَبْنٍ لَهُ: ذَهَبَ وَهُوَ أَصْلُكَ، وَذَهَبَ أَبْنُكَ وَهُوَ
فَرْعُكَ، فَمَا بَقَاءُ مَنْ ذَهَبَ أَصْلُهُ وَفُرِعَهُ؟

* * *

تعازي الملوك

قال العُشْبِيُّ: عَزَى أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ عَمْرُو بْنُ هِنْدَ مَلِكَ الْعَرَبِ عَلَى
أَخِيهِ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ أَهْلَ الدَّارِ سَفَرٌ لَا يَحْلُونَ عُقْدَ الرَّحَالِ إِلَّا
فِي غَيْرِهَا، وَقَدْ أَتَاكَ مَا لَيْسَ بِمَرْدُودٍ عَنْكَ، وَأَرْتَحِلُ عَنْكَ مَا لَيْسَ بِرَاجِعٍ
إِلَيْكَ، وَأَقَامَ مَعَكَ مَنْ سَيَظْعَنُ عَنْكَ وَيَدْعُكَ. وَأَعْلَمَ أَنَّ الدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ:
فَأَمْسَ عِظَّةٌ وَشَاهِدٌ عَذْلٌ، فَجَعَلَ بِنَفْسِهِ، وَأَبْقَى لَكَ عَلَيْهِ حُكْمَكَ؛ وَالْيَوْمَ
غَنِيمَةٌ وَصَدِيقٌ، أَتَاكَ وَلَمْ تَأْتِهِ، طَالَتْ عَلَيْكَ غَيْبَتُهُ، وَسُتُورُ عَنْكَ رِخْلَتُهُ؛
وَعَدٌ، لَا تَذَرِي مِنْ أَهْلِهِ، وَسَيَّاتِيكَ إِنَّ وَجَدَكَ. فَمَا أَحْسَنَ الشُّكْرَ لِلْمُنْعَمِ،
وَالْتَسْلِيمَ لِلْقَادِرِ! وَقَدْ مَضَتْ لَنَا أَصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ الْفُرُوعِ بَعْدَ
أَصُولِهَا! وَأَعْلَمَ أَنَّ أَعْظَمَ مِنَ الْمُصِيبَةِ سُوءُ الْخَلْفِ مِنْهَا، وَخَيْرٌ مِنَ الْخَيْرِ
مُغْطِيهِ، وَشَرٌّ مِنَ الشَّرِّ فَاعِلُهُ.

* * *

لَمَّا هَلَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورُ، قَدِمَتْ وَفُودُ الْأَنْصَارِ عَلَى أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ الْمَهْدِيِّ، وَقَدِمَ فِيهِمْ أَبُو الْعَيْنَاءِ الْمُحَدِّثُ، فَتَقَدَّمَ إِلَى التَّغْزِيَةِ،
فَقَالَ: آجَرَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَهُ، وَبَارَكَ لِأَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ فِي مَا خَلَفَهُ لَهُ، فَلَا مُصِيبَةَ أَعْظَمَ مِنَ مُصِيبَةِ إِمَامٍ وَالِدٍ، وَلَا عُقْبَى
أَفْضَلَ مِنْ خِلَافَةِ اللَّهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ. فَأَقْبَلَ مِنْ اللَّهِ أَفْضَلَ الْعَطِيَّةِ، وَأَضْبَرَ لَهُ
عَلَى الرِّزْيَةِ.

* * *

ولما مات معاوية بن أبي سفيان، ويزيد غائب، صلى عليه الضحّاك

ابن قيس الفهري ، ثم قَدِمَ يزيد من يومه ذلك ، فلم يَقدِّم أحدٌ على تَغْزِيته حتى دخل عليه عبدُالله بن هَمَّام السُّلُولِيّ ، فقال :

اضْبِرْ ، يزيدُ ، فقد فارقتَ ذا مِقَّةٍ واشكُرْ حِبَاءَ الذي بالْمُلْكِ حابَاكَ
لا رُزْءَ أعظمُ في الأَقْوَامِ قد عَلِمُوا مما رُزِئْتَ ولا عُقْبَى كعُقْبَاكَ
أصبحتَ رَاعِيَ أهلِ الأرضِ كُلِّهمُ فأنت تَرعاهُمُ واللهُ يَرْعاكَ
وفي مُعاوِيَةَ الباقي لنا خلف إذا بقيتَ فلا نَسْمَعُ بِمَنْعَاكَ
فافتتح الخطباءُ الكلامَ .

* * *

عَزَى شَيْبُ بن شَيْبَةَ المنصورَ على أخيه أَبِي العَبَّاسِ ، فقال : جَعَلَ
اللهُ ثَوَابَ ما رُزِئْتَ به لك أَجْرًا ، وَأَعْقَبَكَ عليه صَبْرًا ، وَخَتَمَ لك ذلك بِعَافِيَةٍ
تَامَةٍ ، وَنِعْمَةٍ عَامَّةٍ ، فَثَوَابُ اللهِ خَيْرُ لك منه ، وما عند الله خَيْرُ له منك ،
وَأَحَقُّ ما صَبِرَ عليه ما ليس إلى تَغْيِيرِهِ سَبِيلَ .

* * *

وكتب إبراهيم بن إسحاق إلى بعض الخُلفاء يُعْزِيهِ : إِنَّ أَحَقَّ مَنْ
عَرَفَ حَقَّ الله فيما أَخَذَ منه مَنْ عَرَفَ نِعْمَتَهُ فيما أَبْقَى عليه . يا أَمِيرَ
المُؤْمِنِينَ ، إِنَّ المَاضِيَ قَبْلَكَ هو الباقي لك ، والباقي بعدك هو المَاجُورُ
فيك ، وَإِنَّ النُّعْمَةَ على الصَّابِرِينَ فيما ابْتَلَوْا به أعظمُ منها عليهم فيما يُعَاقُونَ
منه .

* * *

دخل عبدُ الملك بن صالح دار الرِّشِيدِ ، فقال له الحاجبُ : إن أَمِيرَ
المُؤْمِنِينَ قد أَصِيبَ بَابِنَ له ووُلِدَ له آخَرُ . فلما دخل عليه ، قال : سَرَّكَ اللهُ
يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فيما ساءَكَ ، ولا ساءَكَ فيما سَرَّكَ ، وجعل هذه بهذه مَثُوبَةً
على الصبرِ ، وجزاءً على الشكرِ .

ودخل المأمونُ عَلَى أُمِّ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يُعْزِيهَا بِابْنِهَا الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ، فَقَالَ: يَا أُمَّةَ، إِنَّكَ لَمْ تَفْقِدِي إِلَّا رُؤْيَاهُ وَأَنَا وَلَدُكَ مَكَانَهُ؛ فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ رَجُلًا أَفَادَنِي وَلَدًا مِثْلَكَ لَجَدِيرٍ أَنْ أَجْزَعَ عَلَيْهِ.

* * *

لَمَّا مَاتَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَتَبَ عَمْرُو إِلَى عُمَالِهِ: إِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ كَانَ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِ اللَّهِ، أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ وَإِلَيَّ فِيهِ، أَعَاشَهُ مَا شَاءَ وَقَبَضَهُ حِينَ شَاءَ، وَكَانَ - مَا عَلِمْتُ - مِنْ صَالِحِي شَبَابِ أَهْلِ بَيْتِهِ قِرَاءَةً لِلْقُرْآنِ، وَتَحَرُّيًا لِلْخَيْرِ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تَكُونَ لِي مَحَبَّةً أَخَالَفَ فِيهَا مُحَبَّةَ اللَّهِ، فَإِنْ ذَلِكَ لَا يَخْسُنُ فِي إِحْسَانِهِ إِلَيَّ، وَتَتَابِعَ نَعْمَهُ عَلَيَّ، وَلَا أَعْلَمَنَّ مَا بَكَتَ عَلَيْهِ بَاكِةٌ وَلَا نَاحَتْ عَلَيْهِ نَائِحَةٌ، قَدْ نَهَيْنَا أَهْلَهُ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ بِالْبُكَاءِ عَلَيْهِ.

* * *

دَخَلَ زِيَادُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ زِيَادٍ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَدْ تُوفِيَ ابْنُهُ أَيُّوبُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ كَانَ يَقُولُ: مَنْ أَحَبَّ الْبَقَاءَ - وَلَا بَقَاءَ - فَلْيُؤْطِنْ نَفْسَهُ عَلَى الْمَصَائِبِ.

* * *

لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ دَخَلَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي صَيْفِيٍّ عَلَى يَزِيدَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَصْبَحْتَ رُزْتُ خَلِيفَةَ اللَّهِ، وَأُعْطِيتَ خِلَافَةَ اللَّهِ، فَاحْتَسِبْ عَلَى اللَّهِ أَعْظَمَ الرِّزْيَةِ، وَاشْكُرْهُ عَلَى أَحْسَنِ الْعَطِيَّةِ.

* * *

عَزَى مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنُ عَتَبَةَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى ابْنِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَعِدَّ لِمَا تَرَى عُدَّةً تَكُنْ لَكَ جُنَّةً مِنَ الْحُزَنِ وَسِتْرًا مِنَ النَّارِ. فَقَالَ عَمْرُو: هَلْ رَأَيْتَ حُزْنًا يُحْتَجَّ بِهِ، أَوْ غَفْلَةً يُنْبَهَ عَلَيْهَا؟

قال: يا أمير المؤمنين، لو أن رجلاً ترك تغزية رجل لعلمه وأنتباهه لكتته،
ولكن الله قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين.

* * *

وتُوفيت أخت لعمر بن عبد العزيز، فلما فرغ من دفنها دنا إليه رجل
فعزاه، فلم يرده عليه شيئاً، ثم دنا إليه آخر فعزاه، فلم يرده عليه شيئاً، فلما
رأى الناس ذلك أمسكوا عنه ومشوا معه. فلما بلغ الباب أقبل على الناس
بوجهه وقال: أدركت الناس وهم لا يعزّون بامرأة إلا أن تكون أمّاً، أنقلبوا
رحمكم الله.

* * *

وجد في حائط من حيطان تبّع مكتوب:

أَصْبِرْ لِدَهْرِ نَالٍ مِنْكَ فَهَكَذَا مَضَتْ الدُّهُورُ
فَرَحٌ وَحُزْنٌ مَرَّةً لَا الْحُزْنَ دَامَ وَلَا السُّرُورُ

وهذا نظير قول العتّابي:

وقائلة لما رأتني مُسَهَّداً كَأَنَّ الْحَشَا مِنِّي تَلَذُّعُهُ الْجَمْرُ
أَبَاطِنُ دَاءٍ أَمْ جَوَى بكَ قَاتِلٌ فَقُلْتُ الَّذِي بِي مَا يَقُومُ لَهُ صَبْرٌ
تَفَرُّقُ إِلَافٍ وَمَوْتُ أَحِبَّةٍ وَقَدْ ذَوِيَ الْإِفْضَالُ قَالَتْ: كَذَا الدَّهْرُ

* * *

كتب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المتوكل يعزّيه بأبن له:

إِنِّي أُعْزِيكَ لَا أَنِّي عَلَى ثِقَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ وَلَكِنْ سُنَّةُ الدِّينِ
لَيْسَ الْمُعْزَى بِبَاقٍ بَعْدَ مَيِّتِهِ وَلَا الْمُعْزَى وَإِنْ عَاشَا إِلَى حِينٍ

وقال أبو عَيَّنة :

فَإِنْ أَشْكُ مِنْ لَيْلِي بِجُرْجَانِ طُولِهِ فقد كنت أشكو منه بالبصرة القصير
وقائلة ماذا نأى بك عنهم فقلت لها لا علم لي فسلي القدر

* * *

وقال بعض الحكماء لسليمان بن عبد الملك لما أُصيب بأبنة أيوب :
يا أمير المؤمنين، إنَّ مثلك لا يُوعَظ إلا بدون علمه، فإن رأيت أن تُقدِّم ما
أخَّرت العَجْزة من حُسن العِزاء والصَّبر على المُصيبة فترضني ربُّك وتُريح
بدنك، فأفعل.

* * *

وكتب الحسنُ إلى عمر بن عبد العزيز يُعزِّيه في أبنة عبد الملك بيت
شعر وهو:

وَعُوْضْتُ أَجْرًا مِنْ فَقِيدٍ فَلَا يَكُنْ فَقِيدُكَ لَا يَأْتِي وَأَجْرُكَ يَذْهَبُ

* * *

ولما حَضرت الإسكندرُ الوفاةُ كَتَبَ إلى أمِّه: أَنْ أَصْنَعِي طَعَامًا
يَحْضُرُهُ النَّاسُ، ثُمَّ تَقْدَمِي إِلَيْهِمْ أَنْ لَا يَأْكُلَ مِنْهُ مَحْزُونٌ، فَفَعَلْتُ. فَلَمْ
يَنْسُطْ إِلَيْهِ أَحَدٌ يَدَهُ، فَقَالَتْ: مَا لَكُمْ لَا تَأْكُلُونَ؟ فَقَالُوا: إِنَّكَ تَقْدَمْتِ إِلَيْنَا
أَنْ لَا يَأْكُلَ مِنْهُ مَحْزُونٌ، وَلَيْسَ مِنَّا إِلَّا مَنْ قَدْ أُصِيبَ بِحَمِيمٍ أَوْ قَرِيبٍ؛
فَقَالَتْ: مَاتَ وَاللَّهِ أَبْنِي وَمَا أَوْصَى إِلَيَّ بِهَذَا إِلَّا لِيُعْزِّيَنِي بِهِ.

* * *

وكان سهل بن هارون يقول في تعزيتِه: إِنْ التَّهْنِئَةُ بِأَجْلِ الثَّوَابِ
أَوْجِبُ مِنَ التَّعْزِيَةِ عَلَى عَاجِلِ الْمُصِيبَةِ.

* * *

الباب الثامن

متفرقات

نظرت امرأة إلى جعفر بن يحيى مصلوبًا، فقالت:
- لئن كنت في الحياة غاية، فلقد صرت في الممات آية!

* * *

لَمَّا مات الاسكندر وقف عليه أرسطوطاليس، فقال:
- طالما كان هذا الشخص واعظًا بليغًا، وما وعظ بموعظة في حياته
أبلغ من عظته في مماته.

وحُمِلَ إلى أمه في تابوت من ذهب، فقالت:
- جمعت الذهب حيًا، وجمعت ميتًا.

* * *

سأل أزدشير بعض الحكماء عن دار بناها، فقال:
- هل ترى فيها عيبًا؟
فقال الحكيمة:

- نعم، عيبًا لا يمكنك إصلاحه.
فقال أزدشير:
- وما هو؟

فقال الحكيم:

لك منها خُرْجة لا عودَ بعدها، أو دخلة لا خروج بعدها.

* * *

قيل لحكيم:

- ما أبعد الأشياء من الناس؟

- قال: الأمل.

ف قيل:

- وما أقرب الأشياء منهم؟

- فقال: الأجل.

* * *

عاش نوح، عليه السلام، ما عاش، وقيل له لما أشرف على الموت:

- كيف وجدت الدنيا؟

فقال: وجدتُ دارًا دخلْتُها من باب، وخرجْتُ من آخر.

* * *

قيل: إنَّ عبد الملك بن مروان هرب من الطاعون، فركب ليلاً، وأخرج غلاماً معه، وكان ينام على دابَّته، فقال للغلام: حدِّثني.

فقال الغلام:

- ومن أنا حتَّى أُحدِّثك؟

فقال عبد الملك:

- على كلِّ حال حدِّث حديثاً سمعته.

فقال الغلام:

- بلغني أنّ ثعلبًا يخدم أسدًا ليحميه ويمنعه ممّن يريدّه، فكان يحميه، فرأى الثعلب عقابًا، فلبّجاً إلى الأسد، فأقعدّه على ظهره، فانقضّ العقاب واختلسه، فصاح الثعلب: يا أبا الحارث، أغثني، واذكر عهدك لي. فقال الأسد: إنّما أقدر على منعك من أهل الأرض، وأمّا أهل السماء فلا سبيل لي إليهم.

فقال: عبد الملك: وعظمتني، وأحسنّت، ورضي بالقضاء.

* * *

قيل لفيلسوف:

- مات فلان في غربة.

فقال: ليس بين الموت في الوطن والغربة فضل، لأنّ الموت في جميع المواضع واحد، والطريق إلى الآخرة من كلّ مكان سواء.

* * *

يروى أنّ الإسكندر مرّ بمدينة قد ملكها غيره من الملوك، فقال:

- انظروا، هل بقي بها أحد من نسل ملوكها؟

فقالوا: رجل يسكن المقابر.

فأحضره، وسأله عن إقامته، فقال:

- أردت أن أميّز عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدتها سواء.

فقال: هل تتبعني، فأحيي شرفك إن كان لك همّة؟

فقال: همّتي عظيمة إن أنلتنيها.

فقال الإسكندر: وما هي؟

فقال الرجل : حياة لا موت معها ، وشباب لا هرم معه ، وغنى لا فقر معه ، وسرور لا مكروه فيه .

فقال : ليس عندي هذا .

فقال : دعني أتمسه ممّن هو عنده .

فقال الإسكندر : ما رأيت مثله حكيمًا .

* * *

قال الحسن لشيخ في جنازة :

– أترى هذا الميت لو رجع إلى الدنيا كان يعمل صالحًا .

قال : نعم .

فقال الحسن : إن لم يكن ذاك ، فكُنْ أنت ذاك .

* * *

قال رجل لأبي الدرداء :

– ما بالنا نكره الموت ؟

فقال : لأنكم خربتم آخرتكم ، وعمّرتم دنياكم ، فكرهتم أن تُنقلوا من العمران إلى الخراب .

* * *

اعتلّ أعرابي ، فقيل له : لو تبت ؟

فقال : لست ممّن يُعطي على الذلّ ، إن عافاني الله تبت وإلا مت هكذا .

* * *

اعتلّ الحجاج، فقيل له: ألا تتوب؟

فقال:

- إن كنتُ مسيئًا فليست هذه ساعة التوبة، وإن كنتُ محسنًا فليست ساعة الفزع.

* * *

لما حضرت وكيعًا الوفاة، دعا بني، فقال:

- يا بني، إنّ قومًا سيأتونكم قد قرّحوا جباههم، وعرضوا لحاهم، يدعون أنّ لهم عند أبيكم دينًا فلا تقضوهم، فإنّ أباكم قد حمل من الذنوب ما إن غفرها الله لم تضره هذه، وإلا فهي معها.

* * *

لما حضر بشرًا الموت، فرح، فقيل له:

- تستبشر بالموت؟!!

فقال: أتجعلون قدومي على خالق أرجوه كمقامي على مخلوق أخافه؟

* * *

شاهد رجل على قبر وهو يُكثر البكاء، فقيل له: أعلى قريب أو على صديق؟ فقال:

- على أخصّ منهما، فقد كان لي عدوّ، فخرج إلى الصيد، فرأى ظبيًا، فتبعه، فعثر بالسهم، فخرّ هو والظبي ميتين، فدُفن، فانتهيت إلى قبره شامتًا به، فإذا عليه مكتوب:

وما نحن إلّا مثلهم غير أنّنا أقمنا قليلًا بعدهم وترحلوا
فها أنا واقف أبكي على نفسي.

قال هارون الرشيد لابن السماك: عِظْني.

وكان بيده شربة ماء فقال له: يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. قال: يا أمير المؤمنين لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. فقال له: لا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة. وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيماً لم ينفعه الطعام، وإذا كان القلب مغرماً لم تنفعه الموعظة.

* * *

روي أن داود عليه الصلاة والسلام بينما هو يسبح في الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة من بني آدم ملقى على ظهره، وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه: أنا دوسم الملك تملك ألف عام، وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش وفضضت ألف بكر من بنات الملوك، ثم صرت إلى ما ترى التراب فراشي، والحجر وسادي، فمن رأني فلا تغره الدنيا كما غرتني.

* * *

قال وهب بن منبه: خرج عيسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم مع أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك. فقالوا يا نبي الله إنا جياع. فأوحى الله تعالى إليه أن أئذن لهم في قوتهم. فأذن لهم، فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون. فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول: زرعي، وأرضي ورثتها من أبي وجدي، فيأذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال: فدعا عيسى ربّه أن يبعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة، فإذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة يقولون: أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، ففرّ الرجل منهم، وكان قد بلغه أمر عيسى، ولكن لا يعرفه. فلما عرفه قال: معذرة إليك يا نبي الله، إني لم أعرفك، زرعي ومالي حلال لك، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: ويحك، هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها ثم ارتحلوا عنها، وأنت

مرتحل عنها، ولا حقّ بهم ليس لك أرض ولا مال.

* * *

قال وهب بن منبه: أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن، وكان من الملوك الأجلة مكتوباً بالقلم المسندي، فترجم بالعربي فإذا هي أبيات جليلة وموعظة عظيمة جميلة وهي هذه الأبيات:

باتوا على قُللِ الأَجبالِ تحرُسُهُم	غلبُ الرجالِ فلم تنفعهم القُللُ
واستَنزلوا من أعالي عزِّ معقلَهُم	فأسكنوا حفرةً يا بشَّ ما نزلوا
ناداهُم صارخٌ من بعدما دُفِنوا	أينَ الأسرَّةُ والتيجانُ والحِللُ
أينَ الوجوهُ التي كانت محجَّبةً	وكان من دونها الأستارُ والكِللُ
فأفصحَ القبرُ عنهم حين ساءلَهُم	تلك الوجوهُ عليها الدودُ يقتلُ
قد طالما أَكلوا دهرًا وما شربوا	فأصبحوا بعد ذاك الأكلِ قد أَكلوا

* * *

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب في بعض سياحاته، فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية، وأعطاه ما يشتري به فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلي، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة فقعد ينتظر انصراف عيسى من الصلاة، فأبطأ عليه فأكل رغيفاً، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين. فقال له أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل ما كانا إلا رغيفين، فأكلاهما ثم مرا على وجوههما حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحداً منها، فجاءه فذكاه وأكلا منه، فقال له عيسى: بالذي أراك هذه الآية من أكل

الرغيف الثالث؟ فقال ما كان إلا اثنين. ثم مرا على وجوههما حتى جاء قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية، فأنطق الله له لبنة فسألها عيسى، فأخبرته بكل ما يراد وصاحبه يتعجب مما رأى، فقال له عيسى: بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج، فأخذ عيسى عليه الصلاة والسلام بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوزا النهر، فقال الرجل: سبحان الله! فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام وقيل ثلاث أكوام من الرمل، فقال لها كوني ذهبًا بإذن الله فكانت، فلما رآها الرجل قال هذا مال فقال عيسى: نعم واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث. فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف الثالث. فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: هي لك كلها. ثم فارقه عيسى. وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه، فمر به ثلاثة نفر، فقتلوه. فقال اثنان منهما للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام فانطلق، فلما غاب قال أحدهما للآخر إذا جاء قتلناه، واقتسمنا المال بيننا. فقال الآخر: نعم، وأما الذي ذهب ليشتري الطعام، فإنه أضمر لصاحبيه سوء. وقال أجعل لهما في الطعام سمًا فاذا أكلاه ماتا وأخذ المال لنفسي، فوضع السم في الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه، وأكلا الطعام فماتا. فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصروعون حولها. فقال هكذا الدنيا تفعل بأهلها.

* * *

وقال الهيثم بن عدي: وجد غار في جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب، وعند رأسه لوح من الذهب أيضًا مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس خدمت عيص بن اسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر، وعشت بعده دهرًا طويلًا، ورأيت عجبًا كثيرًا، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت، وهو يرى مصارع آبائه

ويقف على قبور أحبابه، ويعلم أنه صائر إليهم، ثم لا يتوب، وقد علمت أن الأجلاف الجفافة يستنزلونني عن سريري، ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان، ويترأس الصبيان. فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلاً ومات ذليلاً.

* * *

قال عمرو بن ميمون: افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا بهرام ملك فارس كنت أعتاهم بطشاً، وأقساهم قلباً، وأطولهم أملاً، وأحرصهم على الدنيا، قد ملكت البلاد، وقتلت الملوك، وهزمت الجيوش، وأذلت الجبابرة، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلي، ولم أستطع أن أفتي به من الموت إذ نزل بي.

* * *

روي أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينما هو في سياحته إذ مر بجمجمة نخرة فسأل الله في أن تتكلم فأنطقها الله له فقالت: يا نبي الله أنا بلوان بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة ورزقت ألف ولد، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش وفتحت ألف مدينة، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم. فمن سمع قصتي فلا يغتر بالدنيا، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديداً حتى غشي عليه.

* * *

حكى أن رجلين تنازعا في أرض، فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الأرض فقالت: إني كنت ملكاً من الملوك، ملكت الدنيا ألف سنة، ثم صرت رميمًا ألف سنة، ثم أخذني خزاف وعملني إناء، فاستعملت ألف سنة، حتى تكسرت وصرت تراباً، فأخذني وعملني لبناً وأنا في هذا الجدار كذا وكذا سنة، فلم تنازعا في هذه الأرض،

وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها منقلبون.

* * *

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما رجع من صفين ودخل أوائل الكوفة رأى قبراً. فقال قبر من هذا؟ فقالوا قبر خباب بن الأرت فوقف عليه وقال: رحم الله خباباً أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهدًا، وابتلي في جسمه آخرًا ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ثم مشى فاذا هو بقبور فجاء حتى وقف عليها وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لاحقون. اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل ليوم الحساب، وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى.

* * *

قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضوان الله عليه: ما عندك من ذكر الموت يا أبا حفص؟ قال: أُمسي فما أرى أنني أضح، وأصبح فما أرى أنني أُمسي؛ قال: الأمر أوشك من ذلك أبا حفص، أما إنه يخرج عني نفسي فما أرى أنه يعود إلي.

* * *

قال أبو عمرو بن العلاء: لقد جلستُ إلى جرير وهو يُملي علي كاتبه:

* وَدَّعْ أُمَامَةً حَانَ مِنْكَ رَجِيلُ *

ثم طلعت جنازة فأمسك وقال: شَيَّبَتْنِي هَذِهِ الْجَنَائِزُ؛ قلت: فليَم تَسُبُّ النَّاسَ؟ قال: يَبْدَأُونَنِي ثُمَّ لَا أَعْفُو، وَأُعْتَدِي وَلَا أَبْتَدِي. ثم أنشد يقول:

تُرْوَعْنَا الْجَنَائِزُ مُقْبِلَاتٍ قَتَلَهُو حِينَ تَذْهَبُ مُذْبِرَاتٍ
كَرْوَعَةٌ هَجْمَةٌ لِمَغَارِ سَبْعٍ فَلَمَّا غَابَ عَادَتِ رَاتِعَاتِ

* * *